كائنات من غبار (رواية)

هشام بن الشاوي

(1)

الإسفلت، في ظلمة كما يجدر برجل وحيد، وبائس تغفو إرهاقا، والحافلة تمخر عباب
امرأة سكنتك، ذات شقاء، المغيب الشاحبة... تنتبه إلى أن تلك الفتاة المحجبة تشبه
الإدراك أنك رجل غير ناضج على الأقل هذه تتطلع إليها بحرية، وأنت تدرك تمام
هند!يا جرحا وشم في القلب عاطفيا، وتطارد سراب استقرار عاطفي: "آه. يا..!!".

الضعف كانت أجمل ما أبصرت عيناك ــ يومها ــ وكانت تصدك، وأنت بكل
مراهقة، الإنساني، الذي يختزله الحب اليائس تطاردها، وهي مدججة بكبرياء
حتى لو رشيقة، شهية، حلوة، بشفتين قرمزيتين، وجه كالقمر، وعينين قاتلتين،
رمتك بنظرات احتقار.

اعتقدوا أنها مجرد نزوة، كان رفاقك وأقاربك يسخرون منك..

بطل من صديقك الكهل استعرض مغامراته، هازئا منك في إشفاق.. أوهمك أنه
فكرت في ما ...أبطال الميلودراما الهندية، فاز بقلب معبودته، متحديا كل الصعاب
البيت المادية، يقال عنه، وهو يسلم راتبه الشهري لزوجته، التي تتكفل بكل أعباء
ويأخذ منها ما يبتاع به سجائر محدد عددها كل يوم!!

تتجاهلها. تحدق كلما التقيت هندا ــ صدفة ــ قريبا من محيط الحي، رمتك بنظرة
مستعيدة شيئا مفقودا.. حتى فيك لوهلة.. باحثة عن وجه الشبه بينك وبين الذي كنته،
تخلصت من بعض نزقك الأصدقاء اندهشوا حين التقوك بعد سنوات، وقد...

لا تستغرب، حتى مشاعر النساء تتبخر، كتلك التي كتبت إليك، في بداية غرقكما
العاطفي:

Je t'aime , a la folie...

(أحبك حتى الجنون).

وإنما وليد لقاءات كان أول مسح وصلك منها. لم يكن تعارفكما حبا من أول نظرة،
الأشياء الجميلة باستبدادك قصيرة، ثم صرت (نسيا منسيا)، يا قلب!دائما تضيع كل
بالخناجر، وأنت تحب بسادية العاطفي، بمحاكمة لماضي حبيباتك، بكلماتك الأشبه
حالة واحدة: زواج أحدنا. لا وتغار بطريقتك الهوجاء... ــ لن أنساك إلا في
إلى فخذك: لن أحب أحدا بعدك، أستطيع أن أنساك.. لكن سأحاول!! تستند برأسها
أغوص في النوم، بمجرد وضع بسبب ما كابدت معك، ماعدت أنام.. من قبل كنت
ساعات قابلتها بعد إصرارها على رأسي على الوسادة. الآن أبقى شاردة، أفكر فيك
تتهمك أنك صرت تتجاهلها، ولا تحبها.. لقائك، ذلك المساء، في تلك الخلوة، وهي
تستطيع أن تجاري شفتيها، تضحك مبتهجة، كنت حزينا ومتعبا. تخنقك بقبلاتها، لا
متضاحكة: إنه موصد بمائة قفل..! تضيع كل تمد يدا متكهربة إلى سروالها.. تهتف
تتسكع يدك فوق صدرها.. وفي لهفة، تساعدها محاولاتك سدى، تجثو عند قدميها،
الأيسر... ولأنك كنت تحلم بها زوجة تبادلك في رفع ثوبها، كاشفة لك عن نهدها
معتذرا، رافضا أن يبتذل حبكما شبقا، رغم الحب، كتبت إليها في رسالة قصيرة
أن أعاملك كالأخرين، كرجل وامرأة.. فهذا " :النداء الملح، الصارخ في الأعماق
."!!الأخير جرم لا يغتفر، يا حبي

...ولكي تحطم كل شيء

أكثر مما يتحمل كتبت لها أنك مع عاهرة، كنت مدفوعا بقوة غريبة، وحتى لا تتألم
طرف الآخرين، جسدك الواهن، وتتخلص من عذابات حب، حكم عليه بالإعدام من
وأنك (...) كعادة كل قصص الحب الرائعة.. كتبت لها أن العاهرة كانت حائضا،
!!...من الخلف، وتخيلتها مكانها

كنت (كاذبا) في تخيلك حبيبتك في ذلك الوضع، لكن كنت تحتاج إلى أن تكرهك،
!!بأية طريقة

في مكالماتها الأخيرة، صارحتك أنها ماعادت قادرة على تحمل تعذيبك اليومي لها،

!بكلامك الجارح والبذئ.. وباسم الحب والغيرة

أوانه: "هناك من لم تكن نبرة صوتها حزينة كما في السابق... هو الفراق حان
!!..وحيدا اتصل بي، طالبا مني أن أبتعد عنك". إذا، فلترتشف دمعك

..ليلتها

:تركل كل ما في طريقك، تسب الأطفال الذين يلعبون الكرة قرب البيت

...ـــ ابتعدوا، يا أبناء الـــ

يتحداك أحدهم بلامبالاته، ترفعه من فوق الرصيف، وتدرك عواقب أن ترميه
..أرضا، تدعه يلامس الأرض بقدميه

...تحس أنك في أمس الحاجة إلى هدوء تام، وألا تكلم أحدا

ونوافذها وأبوابها في أزمور، تلك المدينة الأطلسية، الصغيرة، ببيوتها البيض،
لصاق (السليسيون)، الزرق، اعترض سبيلك طفل مشرد يتسول دراهم، يشتري بها
!للا عائشة البحرية فقذفت في وجهه بذاءاتك المعهودة: ـــ سير عند القحاب في

البحرية"، أصرت فتاة في الحافلة الزرقاء رقم ٣، المتجهة من أزمور إلى "للا عائشة
لإثارتك.. حتى مفاتنها غير مجلببة على أن تقف أمامك، لم تكن جميلة بما يكفي
..بارزة بشكل شهواني

باستكانتها وتجاهلها.. فقط، وبطريقة آلية، ودون أدنى استمتاع، وتعبر عن امتنانها،
محاصرة بالصبار، وأعين لا لم تلق نظرة متوعدة، ولا مستزيدة.. كما يجدر ببدوية
...تنام

الداخلي لم تكن في جمال تلك الثلاثينية، التي هيجتك، حين لمحت ثوبها
انتظار القصير(البرميدة)، غير منتبهة إلى أن جلبابها ـــ وهي مع الجالسات في
فتان، حافلة أزمور ـــ قد ستر ما ستر، وكشف ما كشف. كان جمالها عاديا غير
تعمدت الشابة وترتاح إليه العين، فتشتهي أن تلعق بلسانك بطن فخذها المشع بياضا

استكانت يدها إلى دفء البدوية أن تجعل أمها وأخاها، يقفان في الزحام أمامها، وقد
التحام.. هو بعض الدفء في ملمس أصابعك في ما يشبه الاحتضان. لم يحدث أي
المنفرجتين، تلامس ساقها، الزحام. تدخل ساقك في تجويف جلبابها مابين ساقيها
يشبه الاستناد، تحول يدك إلى وتجعل فخذك يلامس ردفها، تحاول لمس كتفها في ما
أن تجرؤ على لمس فاكهة صدر، خصرها، معبرا عن امتنانك لتجاوبها المحايد دون
أيضا، لكن حاجتها ملحة إلى... من في حجم قبضة اليد. لم تكن جميلة ولا قبيحة
محتشمة، يحدثك قلبك: "لا تعرف فيم يتهجى أبجديات جسدها المشتعل خلف ثياب
!!يقلن: يا لك من غبي تفكر بنات حواء في مثل هذا الموقف، ربما

إني أشتهيك!! إن ..لا تتوقع من امرأة (حتى لو كانت بغيا) أن تقول لك: إني أريدك
.!!"لعوب الجسد يجرنا دوما إلى الخطايا، وأن الخطيئة امرأة شهوانية

تلسعك أشعة الشمس، تحس بامتعاض من تلك الطقوس، ومن نسوة لا يفكرن إلا بما
..بين أفخاذهن

مطاعم، بجوار ضريح للا عائشة البحرية، نصبت خيام مهترئة، على شكل
كبير ومزارات دجالين وعرافات، وعبر ممر ضئيل يتدفق جدول ماء عكر، وقدر
وبخورا. مفحم، ملئ ماء تغتسل به (زائرات) الضريح للتبرك، بعضهم يبيع شموعا
إحداهن تسوي يثير انتباهك اللون الأخضر لمناديل وأعلام تبيع الوهم.. تلمح
بلل، وإلى جانبها ساعتها، وحذاؤها على الأرض ينتظر أن تنتعله، شعرها لازال به
الجدران البيضاء رجل أنيق في ريعان الشباب.. تتهجى كتابات بالحناء على
ضئيلين. يأتيك للضريح: أسماء شباب وشابات يحلمون بالنصف الآخر، وديكين
الحبل الصغير، الذي هاتف من الأعماق: "ماعلاقة سواد لون هذين الديكين وخضرة
تتعلق برجل يودن تقييده ربطا به إلى حجرة؟ لم تصدق النساء تلك الخرافات، التي
يحتاج إلى رجل، بحبل شرعي؟ أي عبث أحمق أن يبحثن عن ضالتهن عند رجل
الذي يرى الطالع، عند ذلك المجذوب المخنث ــ والعهدة على البائع المتجول ــ
يلهثن وراء ظل رجل وأشياء أخرى لا تعنيك لكنها تعني الكثير الكثير لنساء،
."وفراش دافئ، ولا يرين أبعد مما تحتهن...؟؟

سيسمح تفكر بصوت مرتفع: لو أجري أي استطلاع تلفزيوني عن الضريح، هل
اللون، وسط بتصوير ذلك الكم الهائل من الثياب الداخلية، والتي أغلبها أبيض
كأي شيء منحوس؟ الأشواك والنفايات البشرية.. ثياب يتخلصن منها بعد الاغتسال،
الكاميرا على هل يمكن تصوير امرأة، وهي تتبول بين أشجار الشوك؟ أم ستركز
الربيع، وهو ينساب في بعض الأزبال المتناثرة هنا وهناك، على الرمال، ونهر أم
الدفوف والأهازيج الشعبية، هدوء تفتقده الدواخل، معانقا المحيط الطلسي على إيقاع
...مشهدا سياحيا رخيصا؟ وعربات (الكارو) التي تجرها الأنعام، مؤثثة

تبصق على الأرض، وتغادر المصطاف كئيبا، بعد تناول السندويش وبعض
.(الدردشة) مع البائع، وتندفع في اتجاه الحافلة

.في أزمور، تحاول أن تستمع بوقتك، بالتيه في فضاء زمكاني جديد

تعرفه على تتوصل بمكالمة هاتفية من صديقك الفاسي محمد، يعاتبك على أنك لم
في أزمور، الآن منتجع سيدي بوزيد، تتخيل أنه سمع عنه الكثير هناك.. تجيبه: إنك
بوزيد (عرفت من بعيدا عن مدينتك البغي... بشواطئها في فندق صغير بسيدي
رؤية علامة خمر المعاشي أن صاحبه مسؤول كبير في مدينة أخرى!) تندهش، عند
المعروضة، وقد كتبت شهيرة علقت على المدخل، وقراءة أسعار خيالية لخدماته
إنه يأخذ ما يشاء :على لوح دعائي صغير، طالبت المعاشي بأجرة مضاعفة.. فرد
.من شراب روحي في حضوره

شارة فوق سطح الفندق، وزعت ــ بانتظام ــ كراس وطاولات بلاستيكية تحمل
وأعلام البيبسي كولا، ومظلات، ومغسلة صغيرة، ثلاجة معطلة، مزهريات فخمة،
يلعبن تحت ملونة ترفرف فوق الواجهات الثلاث للمبنى، تلمح رجلا وامرأة، وبنات
سوى خطوات، مظلات شمسية، تتطلع إلى بقية الفيلات التي لا يفصلها عن البحر
العصافير تتداعى الصور والأحاسيس، تتذكر قيظ المطار المهجور، حيث تختبئ
وأشواكه، والحشرات زوالا، فلا تصادف ــ في طريقك ــ غير نفايات المكان
.وحجارته، وأكياس بلاستيكية بالية

وأن تؤجلا يطلب منكما أحد الموظفين ــ أنت وزميلك ــ ألا تحدثا أية ضجة،

في صمت: عملكما حتى لا توقظا النزلاء، تكتم مشاعرك الغاضبة، تزأر أعماقك ."!"يلعن (...)، يا بن القوادة

الفندق، بثياب تبرز في انتظار المعاشي، تبذر توترك متسكعا، تلمح شابة تغادر عاريتين.. تفكر: إن عبارة مفاتنها، وفتاتين تتأهبان لركوب سيارة فخمة، شبه مستمتعا بما حوله، تغالب (مجتمع عربي مسلم)، أسوأ كذبة سمعتها! يبدو زميلك ترد عليه بجفاء: "لا أحب غليانك الداخلي، وهو يسألك عن رأيك في إحداهن، !!"...لمعاشي تأخر العاهرات الـــ (خمس نجوم)! (تنفخ غيظا) هذا الخراء

مدينتك، تدرك أنك تلفظك حافلة أزمور، تحس بألفة غريبة حين تطأ قدماك أرصفة !الإنسانية تحبها، رغم كل عيوبها، يهتف قلبك: ما أغرب الطبيعة

تجمهرا بشريا، وسيارة يتضاعف تعبك، تمني النفس ألا تتأخر الحافلة رقم ٣.. تلمح شيخ، تلطم إحداهن خدها، الشرطة عند مدخل أحد الأزقة، يلتهمك الفضول.. يحوقل متخلى عنه في سلة، تسري في جسدك رعشة، حين تعرف أنه عثر على رضيع، رفع أرجلهن، دون التفكير ينام قرير العين. تردد حيزبون: إن النساء لا يجدن غير له الأيام، وإن صار ملاكا في العواقب، تتساءل: "هل سيعرف أي شيء عما تخبئه لو أخرجاه إلى هذه الحياة، ـــ في حال وفاته ـــ ربما سيطلب الغفران لأبويه، حتى نفس المتشرد الذي يتسول، بثيابه بطريقة غير شرعية. الحياة جميلة! لكن قد يصير وإقصاء، عقابا على ذنب لم يقترفه، وقدر المتسخة، ونظرات الآخرين تطفح احتقارا "!!لم يختره

غادرت الحافلة وينتشلك من حوارك الباطني ضحك رفاق، وهم يتطلعون إلى امرأة، جلبابها من الخلف، فتبرز للتو، مشيرين ـــ بأيديهم ـــ إلى تلك البقعة اللزجة.. تشد خلفيتها قائلة: "الله يعطيهم استدارة عجيزتها الفاتنة، تلقي نظرة جانبية على ."...الكونصير(السرطان) في

(2)

حلب عوى الكلب متوجعاً حين ارتطم به سطل قصديري، تستخدمه الجدة عند

باباكم كامْلين". بقراتها، ردد سبابه المعهود، بنفس الملامح العابسة: "الله يِلْعن جد
كما تعودوا تجهل سبب ثورة الخال التي جعلته يضرب بقدمه سطل الحليب،
دوما ــ تسميته.. في مخيلتك انطبعت صورة رجل جاد أكثر من اللازم، يحرص ــ
تعرف سر على أن تبقى تعابير وجهه قاسية في الخيمة (البيت) وخارجها، ولا
يتعب جدتك ــ تهجمه الأزلي.. لعلها استقامة سلوكه، ربما يكون الوحيد الذي لم
كبدها يهجرون كبقية الأخوال ــ في طرق أبواب العرافات، لتعرف من جعلن فلذات
...البيت والأهل

ثرثراتهن: ذاكرتك الطفولية الغضة، تجود عليك بصورة صبي ــ كنته ــ عرف من
فكرتين أمك،جدتك، وزوجات أخوالك عن صويحبات... تحاول جاهداً، الربط بين
والشبق... وأمك غريبتين عما تربيت عليه: انقلاب أحوال أخوالك، والسكر، النساء،
وتبلغها أن (تبعد) ابنتها ــ نزولا عند رغبة جدتك ــ تأمرك أن تطرق باب قريبتكم،
...عن أخوالك الثلاثة

تعوزني الكلمات، ولا أستطيع التعبير عما يخالجني. لا أعرف لم يتحدث الكثيرون
عن مثل هذه الأشياء بكثير من الزهو..؟؟

أمك تردد: إنك، وخالك أنجبتكما امرأة واحدة. تضحك في سرك، رغم حرصك
...الشديد على ألا تقلد أحدا، وأن تستقل بشخصيتك عن الآخرين

من المشهد عوى الكلب، والسبب زوجة الخال، ومن خالتك الصغرى، التي انسحبت
كلامها الصاخب، يكاد الدم يفور من خديها وهي تكبح جماح ضحكها، تعرف من
موعد المتقطع أن سبب ثورة أخيها الأكبر: الممرض الذي حضر كالعادة، في
لكن شيئا الحقنة، ولم يكن في البيت رجال.. الصغار مع الجد المنشغل بين حقوله،
لا، وهل واحدا يشغل بالك ــ هذه اللحظة ــ لا تعرف إن كان خالك على صواب أم
الصباحات ستغضب الجدة، بسبب الخسائر الفادحة التي لحقت بسطلها الأثير، رفيق
الكلب الطرية.. السطل ماعاد يصلح سوى لأن (يبزق) عليه الدجاج..؟؟ ما ذنب
يسرق المسكين إن كانت الزوجة مدللة، وذاكرة الطفولة لا تستوعب هاجس أن
الممرض بضع لحظات بهجة من التلصص على حليب الجسد البض.. وكم دوخك

!، قبل ارتباطها بخالك ع جمال

يعد يطيق الألواح الخشبية المهترئة تئن تحت مطرقة عمك (م)، تعرف أنه لم منه، رغم أخوالك، بعد قبولهم صديق طفولته زوجا لأختهم، بصراحة أكثر: سرقها الحياة، وأنت لا أنه خطبها قبله.. هذا سبب كافٍ لأن يكره عمك زوج خالتك مدى !تطيقه، حتى من قبل أن يصير زوج الخالة

الدوار يجري عمك، صديقه الوحيد من بين أبناء العمومة، لا سيما وأن كل شباب والذي في عروقهم دم واحد، دم جد أبيك وأمك. تخمن أن سبب ابتعاد (س) ــ سيصير زوج خالتك ــ عن أقرانه أنه الوحيد الذي كان متعلما، وصداقتهما ...الصميمية انقلبت عداوة بغيضة

تصهل الشمس في كبد السماء، يسرد العم تفاصيل ما حدث، وضربات المطرقة .تفضح توتره الداخلي

لقيمات الخبز وحبات طال انتظار زوج الخالة، الأكل بدأ يبرد، الصغار يتخاطفون ..ابنتها الزيتون، وجدتك تحرص على ألا يتغذوا قبل حضور سعادة زوج

!!الجد: بلا شخصية، عفوا بلا رأي

الأكبر، الوحيد والجوع عدو لدود تحت رحمة انتظار طال، انتظار زوج، كان خالك بأشياء مهينة.. ربما الرافض لتزويجهم الخالة بتلك الطريقة. تفكر: "أحيانا، نقبل ."ثمارا حتى لا تلتصق بها صفة: عانس. والعانس شجرة لا تطرح

فوق المائدة تضرب الجدة أعز حبات قلب خالك، بعد أن كادت أن توقع شيئا مما المشي.. دون أن قصيرة الأرجل، وهي تستند بيديها عليها، كما يجدر بمن تتعلم فانقذف أمام باب يدري، استوى واقفا، وبحركة رشيقة، رفع الصحن من طرفه، ...قبل الحجرة.. وانقض الكلب والقطة على غنيمة لم يحلما بها من

!!"تغمغم: "شكرا للسماء ولعصبية الخال

...وتنفجر ضحكا

أن يطلع عليها هذه الحكاية، تستروا عليها، كأشياء كثيرة مسكوت عنها، لا ينبغي
بطنه.. (يغسل الآخرون، كزواج غير متكافئ، رزقهم صهرا يزروهم فقط من أجل
لا تتحرج من مصارينه)، بتعبير عمك الأصغر، والوحيد الذي، بحكم رفقة العمل،
:التفوه في حضرته بكلام نابٍ

!ـــ سمر هاذ القـْ (...)، أنا جاي

ضحك "التباري" البناء الكهل الخمسيني، وملح الورش، حتى دمعت عيناه، حين سمع
:تلك الكلمة، ونهرك باسما

.ـــ تاحشم من عمك

تطالبه بجلب (عْدال) تتداعى جدران ذاكرته، التباري تلفظ بالكلمة عينها، وزوجته
!!(...) قـَـ ماء من بئر الدوار، بنبرة جافة رد عليها: ما ساكَي حتى

تتطلع إلى هاتفك الخلوي. الساعة الثانية عشر إلا ربع: "راني غادي نمشي نكمل
"هادوك الضربيات

الأجهزة.. إحدى تتأمل بابتهاج حوض الأسماك الملونة في انتظار أن يفرغ أحد
في رأسك السمكات تطارد إصبعك من خلف الزجاج، الأخريات مذعورات، تطن
...ذهنك عبارة صاحبة المقهى نت: (إنها تعودت على ملاطفات الزبائن)، يشرد

.نانا.. ذلك المساء، كانت حزينة

سألتها: إن ضايقها زملاؤها مرة أخرى.. بعروض الصداقة، الرغبة في التعارف،
.و.. و... حتى صارت تفكر في أن تلازم البيت

!ـــ لا. ليس هذا السبب.. اليوم ماتت سمكتي
..ـــ ربما من الوحدة
.ـــ ربما

ـــ وطبعا كانت من نصيب قط الجيران الذي طالما اشتهاها.
ـــ هههه. لا، دفنتها في مزهرية بالحديقة، يا (هبولي).

تبحث عن أي شيء يبذر كآبة المساءات الرمادية...

ـــ لقد تعرفت على امرأة أخرى، وكل دردشتنا (قلة أدب). هههه.

بعد لحظة انتظار ثلجي، كتبت: لا تصدق.

تلوذ بصمتك الصاخب، تفكر في أن تستفزها:

ـــ هاتِ بوسة..

تحتمي بسكينتها، ترد:

ـــ صرت أخاف منك. أنت لا تختلف عن الآخرين!
ـــ منذ مدة لم تضعي صورتك هنا...
ـــ تحجبت..
ـــ سبق أن رأيتها، رغم أنها لم تكن واضحة...
ـــ تلك قديمة..
ـــ يا (لئيمة)، أمزح معك. تعرفين أني أحبك من دون أن أفكر فيك كامرأة.. أنت الشيء الوحيد النقي في حياتي، ولست كبقية (شراميط) الكتابة..

تصمت، تخمن أنها تقرأ ـــ بتمعن ـــ كلماتكما المتقافزة على صفحة الدردشة..

الصغيرتان، الأمهات غادرن بعد انتهاء دردشتهن مع إحدى القريبات، البنتان
تقترب من تتصفحان موقعا. شيء ما يجعلك تحس بالمسؤولية اتجاه بنات أخوالك،
الغاربة الشاشة.. أزياء عرائس، وبستان ألوان، وحواء متأرجحة بين الطفولة
كانت عضوة والأنوثة المشرقة. تنتبه إلى أنه منتدى بعد تفحص ردود، تسألها: إن
واضعا إميله مشاركة، تحرك رأسها نافية.. أحدهم أقحم نفسه وسط عرائس المنتدى،
الصغيرات يا لا غير كرد، وآخر اختار عنوان المسنجر اسما. تقول لنفسك: "حتى

..!!"عرب، يا أبناء العاهرات تلوثونهن.

بحركة عصبية، تهز لوح المفاتيح، طالبا منهما مغادرة المكان فورا، لاعنا كل شيء، رغم تأكيد الصغرى أنها لا تبالي بتلك الأشياء.

وتحس بوخز في الأعماق.
ككل ليلة، تتشاجران...

غزل من أولاد ـــ أعرف أنك تحبينني، لكني لا أطيق أن أقرأ تحت كتاباتك قصائد يوم، وإلا بم تفسرين الق(...). من أين حصلوا على إميلك؟ لا شك أنهم يكاتبونك كل تحت كتاباتك. طبعا ليس هذه اللوحة؟ وهذا الإصرار الغريب على أن ينسوا قلوبهم فخذيها، وحين يفرغ منها شعرا، هي كلمات تكفي ـــ فقط ـــ لكي تفتح أية عاهرة يبصق في وجهها؟؟...

الابتعاد عن النشر في ما علاقة ما تكتبين بتعليقات مراهقة، وسبق أن طلبت منك المراهقات.. المشاعر الجميلة تلك الأماكن الرخيصة. أرجوك، توقفي عن كتابة تلك الحب في مجتمعنا الشرقي هو الوجه نحتفظ بها في دواخلنا، لا نذيعها، لا تنسي أن للآخر للعهارة..

ـــ هل تراني عاهرة؟؟
ـــ يا عزيزتي، لا تؤولي كلامي حسب هواك. مللت، مللت، كل يوم معجب.. لم أرَ أن لهؤلاء الكلاب مثيلا. عادٍ جدا أن يغازل رجل امرأة، أن يمتدح جمالها، لكن عشاقك يكتب لها بلوعة عن عذابات و.. و.. هذا كثير!! سأموت قبل الأوان بسبب ويحرقون الميامين، هم يستمتعون بلعبتهم، يمارسونها مع ألف امرأة كل يوم، أعصابي. أنا رجل غيور جدا، ولا يصلح للحب.
ـــ لأول مرة، أحس بالمهانة. لم أسمح لأحد ـــ من قبل ـــ بأن يتحكم في حياتي ويهينني مثلك...
ـــ قلت لك: دعيني وشأني، لا أريد أن أحب امرأة عرفت آخرين قبلي.. لا أحتمل أن يعلق على كتاباتك أحد حتى لو كان جبريل عليه السلام!

..يبدو أنها النهاية.. لنفترق

.ــ دائما تهددني بالفراق، وتبحث عن أي مبرر لتعود إلى حبيباتك السابقات

.يأتيك صوتها ــ من الجهة الأخرى ــ متحشرجا، وهي تجهش في بكاء، يعصرقلبك

..ــ كل يوم تهديدات وإهانات، كل يوم تعذبني

أجيد الغزل هذه طريقتي المتوحشة والوحيدة في التعبير عن حبي المتطرف.. لا رسائلهم الذي تعشقه النساء.. إنهم ينتظرونك، لا تتأخري عليهم، ردي على رابطا.. هذه الإلكترونية الحارة، واعطهم مواعيد للدردشة. دقيقة. سأحضر لك مغفل كبير: العاهرة مثلا ــ تصفحي الرابط ــ لا أنكر أني أحببتها،اكتشفت أني كازانوفا"، تعشقه، " :الرجل الذي تهاجمه أمام الملأ، في المنتديات، واصفة إياه بـــ قذاراتها قائلا: (شوف وتفعل ذلك لأنه هجرها.. هو من أرسل إلي رابط إحدى تنشر صورته إلى جانب الشرموطة كاتبة إيه..)!! ليجعلني مخلب قط... وهاهي الموت، وتعبد رجلا صورة طفليها في مدونتها.. تخيلي امرأة تكره طليقها حتى !!هذا العجوز الكلب ينظر إليها ــ مثل بقية النساء ــ كعاهرة لا غير. كم أكره

ــ هو رجل نذل، وهي أعماها قلبها... إن كنت قد أحببتها كما تقول، لا تسىء إليها، !!ترفع عنها من أجل ابنيها

تكوم في قلبك: امتقع لونك، تدفق لعابك غامرا لوح المفاتيح، وكل الحقد الأسود !!"الحب "تفوووووووو. كلكن تدافعن عن ماضيكن، عن العهارة باسم

ــ أنا لا أفتح فخذي لأي رجل أصادفه في الطريق. تجاهلت كل الإغراءات، لأني !أحبك.. لا ذنب لي في عقدك النفسية وتجاربك السابقة

تستمع إلى أغنية عاطفية تمزق قلبك، تخفت حدة كلماتك، وبصوت متهدج، مبلل ."بالدموع تهتف:"أحـــــــــــــــــــــبـــــــــــــــــــــــــك

تتم جيدا.. سألك عمك عن سبب شرودك الحزين هذا الصباح، لم تصارحه أنك لم

وجبال أحبتك، سيسخرون منك إن قلت لهم: "إن امرأة بينك وبينها مدن، بحار، وعاهدتها على الوفاء"، و "اختصرت فيها كل نساء الكون.."

صاحبة البيت تنفض عن ثيابك الغبار، تصعد درجات السلم برشاقة، تهلل وجه أشغال الترانيم في بشرا، حين لمحتك واقفا، متأملا (المْعلمين)، تترجاك أن تنهي رؤيتك بيتها، حتى ترتاح من الفوضى. يسود المكان هرج عند..

ـــ لحظة.. لقد اشتقت إلى ميمي...

تتجاوز قامته تتأمل الحقيبة الوردية، الصغيرة،المعلقة في عنق كلبة من صنف لا صاحبة البيت تؤكد ..قدما، تحرك ذيلها في حركات متسارعة، معبرة عن ابتهاجها باحثا عن قطعة جبن للرفاق أن ميمي تعلقت بك.. تدس أصابعك في جوف حقيبتها إلى الشاطئ: لم تتركي أو شوكولاته، يضعها ابن صاحبة البيت كلما اصطحبها معه لي أي شيء، يا ابنة الحرام!

تتقافز واضعة قائمتيها الأماميتين فوق فخذيك..

ـــ عمرها خمس سنوات، وابني نزار متعلق بها حتى الجنون...

توضح:

ـــ ألفة خمس سنوات ليست شيئا هينا، إنها صارت مثل زوجته...
ـــ وهددني: لو حدث لها أي مكروه، بألا أرى وجهه أبدا.. أحيانا أقسو عليها حين تعكر صفو مزاجي.

علق أحدهم: التعلق بالكلبة أفضل من رفاق السوء و...

تمد أصابعك إلى عنقها، تتأمل حقيبتها الصغيرة، وهي بين يديك، وبحركة بهلوانية تلوح بها:

ـــ سأذهب إلى السوق. أتحتاجون إلى أي شيء؟!

...ينفجر المكان ضحكا

بجدية لا تليق تضع صاحبة البيت يدها على خدها، تغالب ضحكتها، مغلفة رجاءها ..هنا وهناك بها كامرأة، كي تنهي عملك، مشيرة إلى أغراض البيت المتناثرة

(3)

قبل أن يشرع في عمله بادرته مستفسرة: "أظن مزاجك غير متعكر اليوم.. ليلة البارحة، خفت أن تكون قد وقعت."

الجاذبية، وبسبب سمكه تساقط ملاط الحاشية العلوية للنافذة ـــ أكثر من مرة ـــ بفعل رش فوقه الإسمنت، ..(الذي صار ثلاثة أضعاف السمك العادي (أقل من سنتمتر أخرى قطعة أخرى غمر الغبار عينيه وصدره وذراعيه.. نفس الرقعة تقع مرة محدثا دويا أشبه رافضة أن تثبت في مكانها. رمي بحامل الملاط البلاستيكي بكلام نابٍ، وهي بالانفجار عند ارتطامه بالحائط، طوّح بالملاسة أرضا متفوها وغبار الإسمنت. سأله جالسة في غرفة مجاورة.. متأملا شكله وهو ملطخ بالملاط أحدهم: ـــ لم لا تستخدم الجبس، سيجف للتو؟

ـــ لا أستعمله، ولا يجوز استخدامه في الأماكن المعرضة للماء والمطر. ـــ يبدو ...أنك تحتاج إلى سيجارة وكأس شاي

ـــ ......

!ـــ كل شيء يحتاج إلى أن تتعامل معه بلين

ثالث يوم في قال في سره: "كنت أظن أني سأنهي العمل في يوم، وها أنذا أمضي بقية الرفاق، أعمل هذا الخراب، سأعمل يومين بالمجان.. في الوقت الذي يرتاح فيه البدن لا أنعم بها، ليل نهار، ومن أجل لا شيء... أعرف أني منحوس، حتى راحة ليتها تموت عساني أرتاح !وجيبي كفؤاد أم موسى..!! اللعنة على من كانت السبب أقلقتك في شيء؟ صمت ويرتاحون أيضا!!" تكرر صاحبة البيت السؤال: ـــ هل ..لحظة

ـــ لا. لا شيء.. فقط كانت أمي مريضة.

اختلق كذبة المرض.. ولم يهتم بسماع بقية كلامها، ودعواتها بشفاء كل الأمهات لأنه تفعل بها؟ هل تدخن وطنّ في أذنه كلام أمه وهي تعنفه: ـــ أين هي نقودك؟ ماذا لأي شيء الحشيش؟.. ـــ تلك الدراهم التي يجود بها (...)،لا تكفي!

مساء، في المقهى..

بدا مكتئبا غارقا في شروده ": ثمن فنجان قهوة يجعلك تحس ألاجدوى منك ومن وجودك..!!".

أن يترجم أهاليهم مع أصدقاء أخيه الأصغر، المنتشين بفرحهم في البكالوريا، يودون المصطافات.. حتى لا احتفاءهم بنجاحاتهم إلى دراجات نارية، سلبت عقولهم في وخليلات يحسوا بأنهم أقل من أولئك الذين يتباهون بلعبهم: دراجات..

لازلتم صغارا، ولا ـــ لا يعنيني ذلك، حتى لو كان يقودها وهي على عجلة واحدة أعد أفكر في أي تهمني تمثيليات الاستعراضات البهلوانية وحرق المراحل. لم شيء..!!

مر حمار ضال يطارده أطفال أشقياء وهم يلسعون ظهره بالعصي والحجارة وهو يهرول أمامهم مذعورا..

ـــ طيب، ما رأيك في هذا السكوتر؟

يعترض سبيلهم ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة رغما عنه، راودته فكرة أن لنفسه: "إنه مجرد حمار ويؤنبهم.. تجاهل الأمر اتقاء سخرية رواد المقهى، قائلا فكروا حتى في الوقوف أجرب هزيل و(مْديني).. لو كان حمارا قرويا قحا، لما خلفه"!!

الغسق قبل لحظات، بين اليقظة والنوم، في فراشه، وهو مستسلم لإغفاءة جدرانه. لم يكن اللذيذة..رأى بيتا غير محدد الملامح. وقف أمام بابه، لم يلتفت إلى

البيوت القديمة، المبنية مهما ــ كما في الحلم ــ إن كان بيتا حديث البناء أو من
بناؤه وسقفه من أعواد وقش بالحجر والتراب (بياضة). ما استأثر بتفكيره.. كوخ
شمس، ترسل أشعتها لازال مبتلا بقطر الندى، وسط حقول خضراء تلمع تحت
القش سوى بضع خطوات، الصباحية الذهبية في غنج العرائس.. ليس بينه وبين بيت
يرتدي جلبابين رثين، وقد وقريبا منه رجل لم يتمكن من رؤية ملامحه، كان مدبرا،
حافي القدمين مغبرهما، يكاد تمزق الجلباب العلوي من الجانبين حتى الخصر، كان
مطلع الشمس، والسماء أصفى من الرائي يلمح تشققاتهما من خلف، يمشي في اتجاه
تساءل عن سبب وحدته وتواجده في عين الديك، عاقدا يديه خلف ظهره. وفي الحلم
ومثله يكون منبوذا بعيدا عن حريم هذا المكان.. حدس أنه عازب ووحيد وكهل،
الدوار... ومهمش اجتماعيا.

حلم مجنون!

ولا يرافقه غير كلب يغط في نوم عميق، وقد حشر رأسه بين قوائمه متكوما مثل
ثعبان..

وخادم القبيلة (قد يكون جد أمه، والعم يحكي ــ بتشف دائم ــ عن ابنة (الخماس
يستطيع أن يتفوه بما التي صارت تنهى وتأمر.. تفهم حقده على الجدة، بيد أنه لا
يرعبه أن ينتهي به يصطخب بين جوانحه.. لكي لا يجرح مشاعر عمه، لكن ما
لابتزازات أب يعبد المطاف خماسا، يعيش في كوخ منعزل كهذا... هل يرضخ
عن استيعابه لتصاميم (نسيبته) أم يبحث عن مورد رزق آخر؟ كلما حدثه الأصدقاء
قائد فريق في الخرسانة المسلحة، والعمل كــ (شاف شانتيي) أي مشرف أو
عن أب يقص الشركات بأجر محترم دون أدنى مجهود عضلي، ليبني مستقبله بعيدا
جناحيه باستمرار حتى لا يحلق بعيدا عن العش..

ثارت ثائرته، منهيا الكلام بعصبية: "أرجوكم! أغلقوا هذا الموضوع!!".

تمطط في قلبه عكست ملامحه انفعال دواخله، وهو يتمدد فوق كرسيه كالوجع الذي
يتركوه لوحده.. هذه اللحظة، وضع ساقا فوق ساق، طلب من أصدقائه الصغار أن

...غارقا في عالمه الخاص

...زمن آخر

غامضا. شبابيك صباح شتوي. السماء ملبدة بغيوم داكنة، تبعث في النفس أسى صباحا، ولا زالت الجيران لا زالت تغط في نومها العسلي.. إنها الساعة السابعة في مثل هذه بعض الظلمة الخفيفة تطوق المكان، والبرد القارس ضيف ثقيل الحلق غصة.. الصباحات الكئيبة، يلسع الأيادي ويصفع الوجوه.. غير ثيابه، وفي أكنت تتعارك " :نفض أسمال العمل، اندلعت عاصفة غبار أبيض، سأله رفيقه ضاحكا .وبصق بلا لعاب مع الكلاب؟".. قاصدا ثياب العمل التي تتمزق بسرعة، تثاءب،

...بحث عن بقايا أكياس الأسمنت، وطلب قداحة من أحدهم

في الطابق العلوي سمع أصوات ارتطام المطارق بحديد (الشرجوانات) ممزقا سكون :الحي. تناهى إليه صوت أحدهم يفك ألواح السواري قائلا

!!...ـــ انهضي يا قَـــ (...). كفاك نوما

الفيلا الخلفية، على حبل قاصدا الجارة التي تتباهى بنشر ثيابها الداخلية في حديقة فتنتها: "يبدو أنها (تسيح) من الغسيل كل ساعة.. استحضر كلامه، كلما رآها تنشر ."!!تحت مثل قربة مثقوبة

...حاول أن يغتصب ابتسامة، لكن دون جدوى

المحاذية لجدار أطل برأسه من فوق آخر درجات السلم الخشبي، لاح له فوق السقالة التفكير من الآخرين.. الواجهة عمه وعبدالرحيم.. رفيق في مثل سنه وأقرب إليه في بْعية) من عجن الملاط،.. خمن) كانا يتحدثان في انتظار أن ينتهي (كَبالا) وابن عمه قَبْقًب) وكراهية عمه له.. من أجل زعامة وهمية أو) أنهما ـــ كالعادة ـــ يتحدثان عن أنه ينسى صفة (ابن الباطرون).. لا يفكر في الاستعلاء عليهم، قيادة للورش، تذكر العمل مع مصطفى قبقب.. لأنه طور مهاراته في النجارة المسلحة يرتاح إلى عكس عمه الذي يعامله بطريقة أقرب إلى طريقة أبيه، كأنه لا يصلح ،((الكوفراج لا يصلح خليفة له، يضحك مع العمال.. يعفي نفسه من التفكير في ..لأي شيء

وجود عمه وقبقب.. إن تواجد مع أحدهم في ورش واحد أو التقوا ــ الزعامة في ورش واحد ثلاثتهم ــ في.

العم يقول عن قبقب: إنه "سْرابسي" (يغش في العمل) و "كَايْدَور التابع" (يتقرب إلى رب العمل مثل كلب يتمسح بساقه).

تدل على ذلك.. فقط لا يهمه إصدار أوامر وتعليمات بلهجة متعالية، ثيابه الممزقة عْبيقة) المتعجرف الذي يقود) يحس ببعض الغبن حين يقارنوا بينه وبين ابن المقاول لكنه (غير متعلم)، لا يفقه شيئا في ..سيارة أبيه، وبهندام أنيق ونظارات سوداء تصاميم البناء والخرسانة المسلحة أيضا "الصنعة"، وربما لا يجيد فك شفرات.

كل هذا ليس مهما...

نهر (بعية) القزم العشريني الأشبه ببرميل وهو يتندر بما حصل في دوار الدحوش (الجحوش) في غيابه بالأمس قائلا:

ــ الصباح لله.. تثرثر في كل الأوقات مثل المذياع!!

جاءه صوت (قبقب) معقبا:

ــ إنه يعوض الساعات التي ضاعت في النوم ولم يتكلم فيها... راه كايبات يتشارجا في الليل (يشحن مثل بطارية).

مرئي: ــ ولمح مصطفى قبقب يفك ــ وحده ــ ألواح السواري قائلا لشخص غير يلعن والدين أمك وااانبيل.. تا شد المادرية أولد الحرام. عاندااك تطيحها.. الله!..

بكوعه عمه تناول نصف آجرة، جلس قريبا منه ملتقطا أنفاسه.. لكز عبدالرحيم ودكَان اللفتة..."، قائلا: "البَشْرة (يقصد العكس: العبوس) دايما كاتكون يوم السبت الثملى والمتجهمة وضحكا حتى دمعت عيونهما لمرأى ملامحه نصف النائمة،...

ــ الهم إلا قوا تايضحك!

حتى وقت متأخر كانا يتحدثان ــ بقلق ــ عن الضالة (السقف) التي سيعملون فيها واستغراق الباطرون دون ربح، ولو ساعة واحدة.. لعلوها وعطب الآلتين المتعاقب، متأخرين. وفي الصباحات في النوم يوم الضالة، على غير عادته حتى يبدأوا فيها الأخرى، يتقافز هنا وهناك تحت جنح الظلام.

مكانها لاحت جماعة عمال منهمكين في جر الخلاط الآلي ــ متصايحين ــ نحو يعملوا أسفل الرافع الآلي الهرم وهو على شفير سطح الورش، استحثهم أحدهم أن أشغال، وعند بسرعة لعلهم يربحون ساعتين أو ثلاثة على الأقل، فلديهم ما يكفي من المرارة وتوتر رؤية (العطاش) حمودة،الشيخ الواهن.. علق العم باسما رغم الأجواء:

ــ ها اللي قلنا. كا يقلب غير على المعدمين والشايطين. شوف العطاشة اللي جايب...غادي نقراو مع الطلْبة.

لعلعت قهقهاتهم..

فوحدها تلاوة القرآن تحتاج إلى شيخوخة ووهن حمودة...

أحدهم إلى أن سرى بعض الدفء في الأجساد، بدأوا يتخففون من معاطفهم، أشار التِباري ــ (يشرعوا في جمع (العشرات) لإعداد الفطور.. طاف عليهم (بعية المعدنية، بحث كالعادة ــ فتح حافظة نقوده بحرص شديد حتى لا يرى أحد صفائحه حصيات السكر اللي) عن قطع نقدية صفراء، عدها أكثر من مرة، تلكأ متسائلا عن (شاطوا البارح.

سوداء من التفوا حول الغلاي(المقراج) الذي علت نصفه الخارجي السفلي قشرة بها كطفل الدخان المتفحم. تفحص رشيد (بعية) سلته وهو يضعها بقربه، متمسكا عجلة.. علق يمسك بطرف جلباب أمه خشية أن يتوه، تأمل الرفاق خبزة في حجم عبدالله (كبالا) متهكما:

ــ مضيع خوتك في الزرع أمسخوط الوالدين.

رد عليه مصطفى قبقب:

ـــ راه هو اللي خدام عليهم.. خليه ياكل باش يقدر يخدم.

تساءل التِباري عن بقية الكؤوس التي يخفونها فور انتهائهم من شرب الشاي، وهدد بتكسير كل الكؤوس...

صرخ (كبالا):

ـــ هذا كأسي،لا يقربه أحد. ضعوه..

تدخل العم مقترحا عليه أن يترك لهم الكأس مادام يفطر بـــ (منعش) متأملا خبزتيه وهو ينهشهما ـــ عبدالله ـــ مثل ذئب..

بدأت الأصوات تعلو في صخب..
رفع عبدالرحيم كأسا وقرأ الرقم المطبوع تحته..

ـــ هذا كأسي،لا يشرب فيه أحد..

عنف (كبالا) عمه التباري:

ـــ حط ليا كاسي التباري. واش تابارك تشري في البلاد، وماقاد تشري كاس بجوج دراهم!!

وأمسك بالمقراج مهددا برميه..

إلى عمه أن صرخ في وجهه الآخرون دفعة واحدة، ملوحين بعصا الغرامة.. أشار يتهشم دائما؟ يبحث عن أية قارورة بلاستيكية أو قنينة مربى: لماذا كأسي الذي...

كل الكؤوس تتخاطفها الأيدي..

إلا كأس مصطفى..

يقربه.. ملمحا إلى عرض عليه أن يتناوب معه في الشرب،غمز له العم بعينه ألا تصطك، فيسمع لها أصوات أشبه بزقزقة العصافير يرددها قفصه الصدري، وأسنانه متداخلان. أثارت حالته صوت كطقطقة الحطب في النار.. يصاحبهما شهيق وزفير قلده (كبالا) خلسة، انتبهوا إلى ..انتباهه وهو يعمل معه لكنه لم يود إحراجه بالسؤال حركته قائلا:

ــ صارط لجام!

من بعيد ــ وروى التباري حكاية بناء، لا تكف كتفاه عن الاهتزاز، من يراه ــ فوجدها الأب يخيل إليه أنه يرقص طربا.. نام في صباه ــ وهو يرعى الغنم ــ ترعى في حقل الذرة، ففاجأه بضربة بسوط يستخدم لضرب!

في عقده الخامس ولا زال يرتعد لوحده من يومها..!!

استوى (كبالا) واقفا،ربت على بطنه المتكورة أمامه:

ــ كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون.

تمرغوا في الضحك، وهو يستشهد بآية كريمة تلائم شراهته وحبه للأكل فقط..

أعطاه (بعية) كأسه..

ـــ صب له الشاي هنا...

تأمل الفتات العالق بحواشيه، صبه أرضا في حنق، وفارقهم..

عاد من دكان البقال المجاور حاملا كيسا بلاستيكيا أسود..

أطل عبدالرحيم من الشباك، لعق بنظراته عجيزة الجارة وهي منحنية، تجمع (التشطيبة) من أمام بيتها.

ــ وا بليزة (حقيبة) عندها!!

باحتلال النوافذ، عند سماعهم كلمة السر (بليزة) قاموا ــ عزابا ومتزوجين ــ الوعرة متلصصين على خيراتها الفائضة من تحت سروال يخنق تضاريسها..

صرخ (بعية) في هياج:

ــ أح ح ح اااح ح ح ح.

نهره عمه:

ــ دايما تنقول ليك: ملي يهدروا الناس قول الله يرحمنا.

وتكوموا فوقه جميعا راكلين، صافعين، متضاحكين وهو يستغيث بأعلى صوته..

وصفائح ظهيرة، والشمس في منتصف السماء، تمدد العمال تحت ظلال الجدران قصديرية أو ألواح أو ورق مقوى نصبت على شكل واقيات شمسية.. مفترشين الأسمال أو أكياس الأسمنت الفارغة.. رنا مشدوها إلى مخبول تعود أن ينام في عراء المطار المهجور ــ كل قيلولة ــ تحت أشعة الشمس اللافحة مرتديا جلبابا خشنا.

قطا رافعا قائمته تأمل السماء وسحبها البيضاء المتلاحقة، ارتشف شايه بلذة، رأى تغارون منه الخلفية.. ابتسم حين تذكر تعليق التباري ساخرا: "حتى القط!".

القيلولات، بموائه قام بمحاصرته و(بعية) أثناء موسم التزاوج وهو يزعجهم، أثناء كسرا في قائمته الخلفية الذكوري الشبق.. لكن (كبالا) رماه بـــ (شرجوان)، سبب له.

نائمين حدق في صورة هرين صغيرين على شاشة هاتفه المحمول الملونة، وهما قادمة فوق خرقة بالية وسط ألواح رميت في غير انتظام. وحين لاحت أمهما الابتعاد عن لإرضاعهما، أخلى لها السبيل وطلب من المتواجدين في الطابق السفلي تسبب في عطب طريقها، فسخروا منه: "يالحنانك أيها المجرم.. أنسيت أنك من أن كل المخلوقات أبيهم؟...". وفي صورة أخرى كشر أحد الهرين عن أنيابه، وأذهله تكون رائعة الجمال في صغرها..

الورش.. فجأة، تناهى إلى مسامعه وهو غارق في عالمه الباطني هرج خارج الدرج مع بقية انقبض قلبه، خيل إليه أنه سمع صوت أحد رفاقه، فاندفع في اتجاه العمال...

(4)

وتأكد حدسه...

قفز الدرجتين الأخيرتين من السلم الخشبي، وعند الدهليز وهو ينعطف مغادرا بئر السلم، اصطدم بـــ "كبالا" وهو يتمطى..

في عنفوان كانت تزأر بصوتها الحاد وهي تمسك عبدالرحيم من تلابيبه، امرأة الأطفال، الشباب.. كثيرا ما كانت تسرقه من ذاته وهي في طريقها إلى روض يتمطى في ممسكة بيدي صغيريها... كانت تشبه آخر حبيباته حد الوجع الذي لازال أعماقه!

بينهما، فبدا مثل حاولت أن تنطح عبدالرحيم برأسها، تدخل "بعية" بقامته القصيرة عبدالرحيم طفل وسط الأذرع المتشابكة، وبنبرة هادئة رد عليها:

ـــ لا أريد أن أؤذيك يا امرأة.
ـــ لن أتركك حتى يأتي زوجي.. سألهما الرفاق عن سبب الخلاف، وهما يحاولون فض الاشتباك..
قلت ـــ إنه دائما (يقل أدبه) كلما رآني، ومن عند تلك الأشواك، وهو... رغم أني عند له: لا أصلح لك، أنا امرأة متزوجة. وبالأمس أيضا تعرض إلى طريقي، وأنا البقال.

التباري" بعينه " انقضت على آجرة حمراء،سارعوا إلى اختطافها من يدها.. غمز له للفيلا أن يغتنم الفرصة، يغير ثيابه وينصرف من الباب الخلفي...

هم يعرفون أن عبدالرحيم يذهب لقضاء حاجته عند تلك الأشواك الرابضة عند

..الطريق الزراعية المهملة

ــ لا لن أذهب من هنا، وسأقول أنك نشلت حافظة نقودي وأجهضتني.. لن أرحل من هنا حتى يأتي زوجي.

أقسم عبدالرحيم أنه لم يغازلها، فطن إسماعيل إلى أن يتعامل معها بلين.. وقف إلى جانبها حيث جلست على حجر في انتظار وصول زوجها:

ــ ماذا ستربحين لو حضر زوجك وارتكب جريمة، وأنت أم لصغيرين في أمس الحاجة إلى أبيهما، وهذا الجنين الذي سيولد وأبوه في السجن؟

بدأ صدرها يعلو ويهبط مع كل شهيق وزفير، وامتدت يدها تكفكف دموعا لم تنتظر أن تنسكب...

دكان بقال تشتتوا، بقيت مرابضة عند صخرتها أمام الورش، يمموا وجوههم شطر كبالا" وهو يحاول " الحي، والجارات من شبابيكهن يتابعن مايحدث.. تندروا بحركات تبدو غير مقصودة.. فك أذرعهما المتشابكة، ويداه تلامسان صدرها الثر بحركات سأل أحدهم الجار الملتحي عما حدث، رد عليه بنبرة ازدراء:

ــ إنهم البناؤون...!!

لكل ماهو أحس بعبارته خنجرا مسموما يخترق فؤاده، كأن مهنتهم تهمة مرادفة النتن تتحدث سيء وقبيح، تمنى ــ في قرارة نفسه ــ أن يحطم رأسه: "أيها السكير الزوايا الخلفية عنا كما لو كنا حشرات، وأنت الحقير الذي يشرب الجعة خلسة في الشارع. تتلفت حواليك للحي، أكثر من مرة رأيتك تشرب غير بعيد عن بيتك وفي من الجيب الداخلي إلى مثل لص، تدس رأسك تحت سترتك، وترفع العلبة المعدنية قل نظيرها عند فمك.. من يراك ــ عن بعد ــ يظنك تتأمل الشمس برومانسية إداري سام مثلك".

بالزوج الهائج ابتلع مرارته، وغاص في أعماقه متجاهلا كل ماحوله...غير مبال

...المتهالكة كالثور وهو يسأل عمن تجرأ على زوجته جارا دراجته النارية

..وطاف بمخيلته ماحدث في الحافلة في أحد الآحاد الكئيبية

للحافلة كان منعزلا عما حوله، مترفعا عن كل شيء.. وعلى الكراسي الخلفية بالهاتف المحمول المهترئة تناثر مراهقون، كان أحدهم يلتقط صورا ومقاطع فيديو جوارها، فانقضت للحسان الكواعب، لمحته إحداهن، فهمست في أذن الواقفة إلى يلتهب.. أطل عليه كصقر، ورمت الجهاز من النافذة المشرعة، وعيناها جمر عنها صرخة برأسه، لمح هاتفه المحمول متفتتا تحت عجلات سيارة عابرة، ندت رفاقه وبعض قوية، عندما هوت كفه بقوة على خدها.. اختلط الحابل بالنابل، طالب السيارت كالسعار، الركاب السائق بإيقاف الحافلة.. ومن خلفهم انطلقت أبواق .احتجاجا على عرقلة حركة المرور

لم ينتبه إلى صعود رجال الشرطة، وهو يتصفح هاتفه المحمول.. انتشله منه أحدهم ..بحركة رشيقة، وهو يطالبه بأوراق هويته

نوع (فودافون)، ــ لا أظن أن شخصا كئيبا وبائسا مثلي، قادر على شراء هاتف من أمي، فكيف أنظر إلى مثل :يا سيدي، أنا لا أبتسم حتى في وجه المرأة التي أنجبتني هذه...؟

:تصفح الشرطي مليا بطاقته.. سأله عن مهنته، رد عليه بلهجة جافة

.(ــ (حوفار

لم يفهم الشرطي الكلمة، فبسط يديه الخشنتين أمام ناظريه.. أقبل أحد رجال الشرطة ..مصغيا إلى حوارهما الهادئ

لكن تأمل ــ يمكنك أن تتهمني أني معهم بمجرد أني جالس بقربهم.. ذاك حقك، تهينني بهذه بنيتهم الجسمانية القوية، تسريحة شعورهم الغريبة، و.. و... أنت !الطريقة والله

ليتأكد من اسمه ..تأمل الضابط الشاب بطاقته، قرأ بتمعن اسمه، أعاد طرح السؤال
..صمت العائلي، وأشار إلى زميله بإيماءة من رأسه أن ينسحب في

..ـــ لم أعرفك
...(ـــ أنا زوج (ح
..ـــ أخت زوجة عمك

السلم بصق على الأرض لاعنا كل نساء الأرض، لمح الجارة وهو يصعد درجات
المولعة باستعراض الخارجي المؤدي إلى الطابق الأول من الفيلا.. رنا إلى الجارة
يدها إلى سروالها ثيابها الداخلية في حديقتها الخلفية، وهي تصعد الدرج مادة
صمت.. غير قادر على أن الضيق، تشده لتبرز فتنتها الخلفية الطاغية، وتوجع في
التي حيرته، التهم مفاتنها بعينيه يبوح لأحد رفاقه بما يكابد في حضرة هذه الأربعينية
!!"....العجوز في صمت نهم.. وهتف لنفسه: "ربما زوجه

تنظر إليها بعيون حين تفتح شباكها على الساعة التاسعة صباحا، تبقى متسمرة خلفه
الصباحية متشاغلا بأي مراهقة عرفت الحب لأول مرة.. فصار يترصد إطلالاتها
جماعة، بتعبيرهم. شيء، بعيدا عن أعين الرفاق.. فالدجاجة (لا تبيض) وسط
مرددا في سره: "هذه ..ويتشاجر مع العزاب منهم حين يضبط أحدهم يتلصص عليها
ما يشبه الغيرة: غنيمتي، ولن أسمح لأحد أن يمسها". يتصرف كالأطفال مخفيا
تلميحاتها الأنثوية "أيمكن أن أكون قد أغرمت بها، وأنا أتابعها خلال أسابيع
."الشهوانية؟

!..ـــ أيعقل أن تنظر إلى واحد مثلك؟ تأمل أسمال الشحاذين التي ترتديها
!!...ـــ النساء لا يهمهن المنظر وإنما

:جن جنونه، فصاح

!!..ـــ إن نكحتها فانكحني معها أيضا

..وعض على أصابعه

مافوق خصرها، رآها تنظف حديقتها الخلفية مع الخادمة، كانت ترفع فستانها إلى
وحين تلمح الخادمة ويلوح سروالها الأسود الضيق خانقا عجيزة تواقة إلى الانطلاق،
.قادمة تسدل الستارة على فتنتها الآسرة

.تكرر المشهد أكثر من مرة، وكانت تعرف أنه يراقبها في صمت

فجاءته متذرعة بكرة واندهش عندما علم من "بعية" الجالس ليلا أمام بوابة الورش،
لتتجول بين رحاب البيت صغيرتها التي رمتها في حديقة الورش، واغتمنت الفرصة
...الموعود، فسألته إن كان يبيت وحده

:فصرخ في وجهه ضاغطا على مخارج الحروف

.ـــ غبي، لا تفهم أي شيء
.ـــ لقد كان معها طفلها.. وسألتني عنك وقالت: إنها لا تحبك. وأنك سيء للغاية
ـــ أعرف أن لا أحد يطيقني.. لكن تلك السيدة تكرهني لشيء واحد فقط، لأنني لم
ألمح لها.. هل تحب أن أحكي لك كل شيء ولا تخبر أحدا؟
!!...ـــ صدقت، كل من رآها، قال: أنها تريد من
ـــ جميل. بدأت تفهم.. لكن احذر أن ترتكب أية حماقة.. هذه متزوجة،
وسيصدقونها، ولن يتكلم عنها أحد بسوء، لكن سيحتقرونك قائلين: (عطا الله
!!(الزبْل

..في المقهى، مساء

بدأت بعض وهو مع الأصدقاء الصغار، وقف إلى جوارهم "المعاشي" بشاربه الذي
المعاشي" " الشعيرات البيضاء تغازله، الكراسي مشغولة، وهو مسترخي.. أشارإليه
المعاشي فوق مقعده، أن يرى شيئا مرميا بالقرب منهما، قام مسرعا ناحيته، وارتمى
ولعلعت ضحكاتهم، فطن إلى لعبته، حاول سحب الكرسي من تحته، لكن دون جدوى
:وعلق باسما

أعرف أن كل ،(ـــ هذه المرة خدعتني، مرة أخرى لن أثق فيك، (وجذب كرسيا آخر

لاذعة) هذه ما يشغلك هو مكاني.. لا أحد يستحق أن تحتل مقعده سواي. (وبسخرية
.(الجلسة تذكرك بجلسة "الكرمة" (شجرة التين

..احتقن وجهه، ولعلعت ضحكات الأصدقاء

تصير عندك ــ شتان بينك وبين جلسة الكرمة، يجب أن تشرب البيرة أولا حتى
لم أشرب هذه.. مثل خالك (ربت على بطنه، وتابع حديثة بزهو) منذ عشر سنوات
...الخمر، كنا نسهر حتى الساعة الرابعة صباحا

بدا شبه غائب عن الوجود، وهو يتحسر على زمن ولى إلى غير رجعة، وقد انعكس
...أثر الذكرى على تعابير وجهه، واستأنف حديثة بعد لحظات سهو

ــ هل نلتقي غدا في سيدي بوزيد.. لدي بعض الأشغال هناك يجب أن أتممها؟

.(ــ تقصد عند الحاج بو بااااااار(صاحب الفندق

وشرد ذهنه ،(أحس "المعاشي" أنه يستخف به حين نعت هذه الشجيرة بـــ: (الكرمة
الأوكالبتوس للحظات، ووجد نفسه صغيرا، تائها في قيظ القيلولات بين أشجار
أسطوري، وتحت الفارعة، وهديل اليمام يبث في النفس أسى غامضا، كأنه نواح
الصغيرة والتراب أشعة شمس لاهبة، يطاردون أعشاش العصافير واليمام، والحجارة
عيناه: الشوك، النباتات يحرقان أقدامهم الحافية، وبحنين يتأمل كل ما تقع عليه
يحذرهم الأهالي من الخروج ساعة ،(الطفيلية، الصبار والحواجز الحجرية (السْطاير
فيلتقي كل صبيان الدوار في أماكن معينة القيلولة، يغافلونهم حتى يخلدوا إلى النوم،
البيدر أو في (الجْنانات) بين أشجار التين الهرمة ودون سابق موعد عند البئر أو في
.وأشجار الأوكالبتوس برائحتها المميزة

قادما في اتجاه تبادل و "المعاشي" نظرة ذات معنى، حين لمحوا جارهم المتقاعد
فشله في اختراق المقهى، الذي يغلف نفسه بهالة من الوقار لامعنى له، ويزعجه
يحرك شفتيه ويرفع عزلته رغم أنه أحيانا يلقي عليه التحية بصوت لا يسمع، فقط
متجاهلا الكبار والصغار.. بيده تحية، وأحيانا لا يلقيها على أحد، يمر من أمامهم

للمقهى، سارع إلى إحضاره، حتى أدرك أنه يريد الكرسي من الجار المجاور دكانه صمت التماثيل عائدا إلى يدخن سيجارة بعيدا عن أعين زوجته ويغادرهم في مصبنته

ابتدره باسما:

ـــ والحاج إمتى غادي تدير لينا الزردة، زردة الصباغة ديال الطوموبيل؟...

ابتلع الحروف تضايق نوعا ما من تطفله رغم طيف ابتسامة باهتة، ارتبك، تلعثم، الجار وامتقع وجهه المتغضن.. وبنبرة طفولية مستنجدة وجه حديثة إلى:

ـــ الحاج.. شوف.. هذا مالو..

وحكى للمعاشي هامسا في أذنه أنه سأل قبل أيام عن سائل كيماوي يستخدم في الصباغة..

أخفى ضحكه والكلمة ترفض أن تستقيم على لسانه وبنبرته البدوية جدا..

ـــ الحاج، والحاج.. عندك السولو..
ـــ اعتق، وحلات ليه...

قالها في سره، كاتما كل ضحك الدنيا..

ـــ عندك السيلو.. لو.. لوزيك.

له الرقم غير ، بدا(sms) أحس باهتزاز هاتفه المحمول، أدرك أنها رسالة قصيرة محتاج جدا إلى من مألوف سارع إلى قراءتها: "سأكون في الجديدة هذا المساء، أنا يقاسمني همي، هذا رقمي الجديد.عماد".

انتابه قلق. منذ سنوات لم يقابله، حاول أن يسترجع شريط الذكريات، غارقا في صمته، لمح المعاشي إلى هدوئه متهكما:

ـــ (الله لا يطيح حبك على حجرة)!

ألتقه، ــ لا. إنه مجرد صديق من زملاء الدراسة، يود مقابلتي، منذ ثلاث سنوات لم انقطعت عني أخباره، بعد أن غادر وأمه المدينة بعد وفاة أبيه...

يعرف من خلاله وقبل أن يسترسل في حديثه، خفق قلبه وهو يسمع ذلك الرنين الذي اتقاء سخريتهم ــ أنها المتصل.. غالب شهقة، انتحب ركنا قصيا، مخفضا صوته ــ غادر طاولته، لمحه وهو يتكلم بلهجة مصرية مع "قطته الشامية".. قام المعاشي، كلامه، وبصوت كالهمس وهو يقرب يده من الهاتف، كأنما يخشى أن يسمع غيرهما "موووووووووووووووت هتف: "أهلين حبيبي. وحشتيييييييني.

علق "المعاشي" هازئا:

ــ عنداكي تثيقي بيه. راه غير كذاااااااب.

وقلد الحاج سيلولوزيك قائلا:

ــ سير. سير الله يعيط شي مصيبة!!

وانفجرا ضحكا...

(5)

ــ لا أصدق حياتي أنك من تتصلي بي، بصراحة، لم أتعود أن تتلفن إلي أية امرأة.
ــ لست أية امرأة..!
ــ بالتأكيد، يا شمس حياتي وأميرة أحلامي.
ــ لدي خبر سار جدا..
ــ ماهو؟..
القنوات ــ منذ زمن أفكر في زيارة المغرب. كثيرا ما كنت أتوقف أثناء تجوالي بين أزقة الأسواق الفضائية عند القناة المغربية، وأتخيلني إلى جانبك.. نتجول بين الشعبية، وبأحد المطاعم تدعوني إلى شرب (الحْريرة)!!
ــ أظن أنك...
ــ آه، ستبعث جريدتنا بعض مندوبيها إلى المغرب لحضور

معرض الكتاب بالدار البيضاء.

ـــ خبر سارّ.

ـــ حياتي، أتذكرين أول لقاء تعارف..؟

تصمت للحظات غارقة في بهجة الذكرى الآسرة.

جرائمها اللغوية.. كتب تعليقا جافا على موضوع لها في منتدى أدبي، أهداها كل
التوقف عن نشر كتاباتها وللتو، كتب إلى صاحبة المنتدى أن تطلب من هذه السورية
"...ستتهمني باضطهادها في ركن الشعر: "أنت امرأة مثلها، لو كتبت لها ذلك.

سريرته: وانشغل بتفحص ملف أحد الأعضاء، حدق في صورته الرمزية، قال في
بوصول رسالة "ألم تتعب من تغيير صورك كل ساعة، أيها التافه؟". توصل بإشعار
خفف من حدة خاصة من صاحبة المنتدى: "يكفي المنتدى أن معظم الكتاب هجروه،
..ستفقد صوابها ردودك". فكر في الرد عليها بأنه لا يجيد النفاق مثلهم، حدس أنها

على الإطار السفلي الخاص بمشاهدي الموضوع لاح له اسم مديرة المنتدى والـــ
(دون جوان) الفلسطيني وكاتبة الموضوع.

دوما، "تلك قرأ رد المديرة.. كلمات ترحيب لطيفة وامتنان على الحضور المشرق
قرأ تعليقا ."صاحبة المنتدى تحرص على تواجد الأعضاء، ويحق لها أن تجاملهم
ضالتك في ورديا، فثارت ثائرته، وبأصابع تعدو كخيول السباق كتب: "ابحث عن
تأوهات أحد مواقع المراهقين.. حرر بلدك بدل أن تضيع وقتك في التعليق على
محترم العذارى. لا تنس أن تتوقف عن تغيير صورتك كل دقيقة، هذا منتدى ثقافي
ينصبن وليس ماخورا أيها الـــ... ابحث عن إحدى قطط الليل بدل أن تطبل لمن
"!!الفاعل ويرفعن المفعول به. مع كامل احتقاري.

دخل أيضا، (قفز إلى المشهد الضوئي اسم بحروف حمراء، فأدرك أن (زوج السيدة
بقي اسمه وردي .أو ربما دخلت باسمه، إذ اختفت الحروف بنية اللون الخاصة بها
الموضوع، أعاد اللون، الدال عليه كمشرف وسط اسمي عضوين متواجدين في نفس
أسود.. مجرد تحديث الصفحة، فوجئ بحذف تعليقه الأخير ولون حروف اسمه صار

!عضو عادٍ

هنيئا لك كل نساء أحس بنار تلتهم أحشاءه، فكتب: "أدع لكم هذا المنتدى المهجور، بمثل خستك. وداعاً العالم يا بن القحبة. سأحاول أن أكون (جنتلمانا) حين أصبح".

وفي أقل من لحظات، حجب عنه المنتدى.. لم يعد بإمكانه قراءة أي مادة، كتب له: "تم حظر حسابك.لا وجود لأمثالك بيننا".

ــ كم كانت مؤلمة تلك التجربة حبيبتي. لكن هذا حال العرب، لا يحبون إلا من ينافقهم..!!

كان لا يتوقف ــ تتذكر أني انسحبت من المنتدى بعد إيقاف عضويتك. ذلك الخسيس أحتقر عن كتابة الرسائل الخاصة عبر المنتدى إلى كل العضوات.. كم كنت على البريد الأسلوب الذي يتبعه. يكتب للزميلات ردودا رائعة، ويكاد يبوس أقدامهن أن تعرض الخاص لكي يضفنه إلى قائمة المسنجر. لم يكن باستطاعة أية زميلة فيها نفسها لموقف مشبوه، فكن ينسحبن في صمت من المنتديات التي يتواجد!!

كنت تدفعني دفعا إلى اكتشافك من خلال كتاباتك الحزينة رغم جرأتها.

ــ أنا سكران وبلا خمر. يكفي أن أسمع صوتك حلو النبرات لأنسى كل ما تقدم وما تأخر!!

ــ أعرف أن كل الرجال لا يفكرون إلا في (السكس)، لهذا لم أكن أقبل من (يضيفونني، فبمجرد أن يكتب لكِ: (هــاااااي)، يطلب منك أن تشغلي (الكام.. ثمة شيء ما شدني إليك أيها الوغد.

ــ طيب آنستي، عمي يبدو قادما. أراك لاحقا.. ربما لن أظهرهذه الليلة على المسنجر... ظروف عائلية. باي.

وأرسل قبلة: "أتمنى ألا تضيع.. بسبب الضغط على الشبكة!".

وضع الجهاز في جيبه برفق، حيا عمه وانتحى به جانبا ملوحا لأصدقاء المقهى

بيده: "إلى اللقاء".

ــ أين الباطرون؟

ــ لا أعرف، أظنه في تلك القرية التي تنعق فيها الغربان.

ــ ألن تذهب..؟!

ــ لا، حتى لو مات كل أفرادها.. حرمت على نفسي أن أطأ ترابها بعد الذي حدث. لست دمية يحركونها كما شاؤوا.

ــ ذاك عمك الذي مات هذا المساء، أما أنا فلا يعنيني لي أي شيء.. نسيت أن لي أجداد. بالعكس، سأحتفل الليلة بهذه المناسبة السعيدة.. لن أبيت في البيت،لن يسألني أحد، كما لو كنت مراهقة، أين تأخرت.

ــ مع "بعية" و "كبالا".. طيب،هات مفاتيح دراجتك النارية.

ــ بشرط..

ــ تعرف أن هذا ال(...) أخاك... صار يتعمد الضغط علي ماديا حتى أرضخ، لا يرمي لى بفتات جيبه إلا حينما يشاء، ومن دون شك، سيتباهى بكرمه الليلة، وأنا أفهم لعبتهم الحقيرة.. سبق وقلت لك: أني لن أتزوجها حتى لو عانقت الأرض السماء. تعرف أني...

ناوله المفاتيح، والتقط بأنامله ورقية مالية وردية.

عند بوابة الورشة غسقا..

الأخير جر دراجته بعد انصراف العمال، يتجادل "بعية" و "كبالا" بصوت خافت. هذا وفضلات البهائم تحت الهوائية المتهالكة، ولاح لــ "بعية" سرواله الممزق من تحت حذائه، خاطبه بلهجة جافة: "لا أعرف ماذا ينتظرك في تلك القرية الغبراء؟ لم تتعود أن تتخلف عن سهرات السبت. دعك مع البهائم..!!".

ــ أنا حر، لا أريد أن أسهر معكم.. كرهت القحاب والخمر. أريد أن أتوب.

ــ لا أصدقك.. هناك شيء ما، ولا بد أن أعرفه.. هيا. انطلق قبل أن يحل الظلام

(وتتوه عن (خيمتكم.

عكست ملامح "بعية" بعض الحزن المترنح في الأعماق، وغمغم: "لن يكون للسهرة مذاق من دون حماقات هذا الدب!!".

أحكم "بعية" إغلاق باب الورشة، ويمم وجهه شطرمخدع الهاتف العمومي.

القصيرة المسجلة سابحا في بحر ذكرياته مع حبيبته الإلكترونية، وهو يقرأ رسائلها المساءات الرتيبة، أثناء على هاتفه المحمول.. يستحضر لقاءات المسنجر الأولى في الألفة والانجذاب الخفي وقت صار شبه مقدس أن يلتقيا فيه، حتى أحسا ببعض..

أنها تزوجت أحد لخص لها تعاسته في إحساسه المرير بالوحدة والشجن، عرف منها زالت عذراء: "لا أقاربها، الذي فرض عليها من طرف أسرتها، وأنها خلعته ولا وتبحث عمن يبادلها حبا شعوريا، ستكره كل الرجال الذين لا يفكرون إلا في الجنس، عذريا".

ووجد نفسه مدفوعا إلى مجاراتها..

لطخ الحزن وقف أمامه عماد، لم يصدق ما يرى.. نحيلا أكثر مما ينبغي، وقد صدره.. تبادلا صفحة وجهه، فبدا أكبر من سنه، كأن كل هموم العالم جثمت فوق أشار إليه أن يذهبا ..عناقا حارا والسؤال عن الأحوال، ارتشفا فنجاني قهوة وغادرا إلى الورش القريب منهما.

ــ أعرف أنه لم يسبق لك أن زرت ورش بناء، لكن توجد حجرة جاهزة بما يلزم.. دافئة، منعزلة عن العالم..

التي توهم المار من أمام دفع البوابة الحديدية المواربة، أعاد إغلاقها بنفس الطريقة تباعا الورش أن لا أحد في الداخل: "سيتوافد الرفاق".

ثلاثيينة خمرية الوجه، رأى "بعية" ممددا فوق السرير المهلهل، إلى جانبه امرأة وغير بعيد عنهما.. ألواح مترهلة الجسد وهي تعد طعام العشاء على ضوء شمعة،

مائدة، مغطاة بثوب رخيص خشبية تستخدم في النجارة المسلحة شكلت على هيئة بعية" عن رقم كأس " تناثرت فوقها كؤوس الشاي، رفع "المعاشي" أحدها، سأل "كبالا" ضاحكا، واستطرد: "الله يحفظنا من كأس قبقب!!".

ـــ اطمئن، قمنا بوضع علامة خفية عليه بالكُلاب من تحت، هشمنا جزءا من قاعه.

رمي "كبالا" الدراجة في إهمال على حائط البيت الطيني الذي بدأ

ملاطه يتقشر..

بعض أعواد الذرة وتحت جنح الظلام التقى عمه "التباري" واقفا أمام بيته، يرمي إحداهما، فيما الأتان تمد اليابسة على الأرض بين بقرتيه العجفاوين.. مداعبا ظهر مصدرة صوتا لن يقاومه، رأسها في حركات متسارعة مطالبة بنصيبها من التبن، خلال الصوت إن كانت جائعة ويحفظه بحكم عشرته القديمة لحيواناته.. يعرف من الذي ركل بقدمه الكلب وهو ،"أو عطشى أو مرهقة... ثم سأل ابن أخيه "كبالا يتمسح فيه حين رفع السلة البالية من المقود..

ـــ أراك اليوم لم تبت مع (الدْراري)..؟

فطن "كبالا" إلى ما يلمح، فغير الحديث:

ـــ لم أجد أمي في الدار. أليست عندكم؟

قالها وهو ينقل نظراته بين أركان بيت عمه باحثا عن شيء ما، لا يعرفه سواه..

ـــ لا، لقد ذهبت مع زهرة للعزاء.

امتقع وجهه، كأن سطلا من الماء البارد رش فوقه على حين غرة. لا ذ بالصمت، وسأله العم..

ـــ سأغير ثيابي، وأذهب. ألن ترافقني؟..

...ــ لا.لا.لا. هم لم يعزوني في أبي

الرابطة بين أفراد لم يكن يعني "كبالا" موت الجد في شيء.. لا تهمه الوشائج بما يصطخب بين جوانحه، الدوارين، راح يبحث عما يأكل ليبدد توتره الطاغي مثقلا ارتمى على سريره في غير قادر على البوح ــ لأحد ــ بما يجول في خاطره، ثم للستاتي في المسجلة، الظلمة متحسرا على ضياع السهرتين.. وضع شريطا شعبيا ..أشعل سيجارة شقراء رخيصة، راح يدخنها في تلذذ

الملاصق لبيتهم في عمق الليل البهيم، تفرق الرفاق، كعادته تسلل إلى اصطبل عمه اللحظة جعله من الخلف.. سمع خشخشة أوراق، وخطوات تقترب.. انغماسه في لذة عمه ينشغل عن معرفة من يخرج من بيته بعد منتصف الليل.. ضبطته زوجة وتبانها التباري محتضنا الأتان من الخلف وجسده يهتز.. كانت لاتزال تشد سروالها شهقت، غير ...من تحت ثوبها المرفوع ما فوق الركبتين، تراجع إلى الخلف ولازال :قادرة على رفع عينيها

ــ عرفت الآن لم لا تحبل كل أتان (نكسبها)؟
..ــ أرجوك، لا تخبري عمي
..ــ بشرط

الخلف، ليطفئ نيران لم يكن باستطاعتها أن تقول له أن عمه يأبى أن يلتصق بها من تتمرغ فوق شوك الفراش. تلك الشهوة الشيطانية التي اندلعت في بيدر جسدها، وهي الخلف في زحام الحافلة تردد في سريرتها: "ليس ذنبي أن أحدهم التصق بي من للجسد الأربعيني المحروم المتوجهة إلى السوق الأسبوعي..". أدرك النداء الخفي بعجيزتها المترجرجة نحوه.. وهي تستند بيديها على الحائط في تلك الظلمة، دافعة وأنفاسه تحرق وجهها.. تدفق دس شيئه بين فلقتيها مطوقا خصرها بذراعيه بقوة، ...يقبلها رضابه فوق رقبتها، تقززت، فنهرته ألا

طيفها بذاكرته شد نفسا عميقا من سيجارته، ارتسمت على شفتيه ابتسامة حين مر ونساء القرية يمازحنني: متأوهة، تترجاه أن يترفق بها: "يومين وأنا أمشي كالإوزة،

لم تمشين كصبي بعد ختانه"؟

المشتهاة. قال وأحس بكراهية شديدة اتجاه خال أمه وهو يسرق منه بهجة السبت التباري" صار " لنفسه وهو يزفر: "ألم يختر أن يموت إلا يوم السبت؟؟ حتى عمي ."يربط أتانه العجوز في الخارج ولا رغبة لي فيها

ومزاحهم الثقيل مع "غادرا الشرفة العلوية حيث جلسا بعيدا عن "بعية" و "المعاشي البوح له بأشياء تضايقه.. العاهرات الثلاث.. بعد أن أدرك بفراسته رغبة عماد في صباحا في الورش، ثم يزوران بعيدا عن غرباء لا يعرفهم، تواعدا على أن يلتقيا الحزن على ملامحه متأثرا بما زميلهما في الدراسة عبدالرحيم في حجرته.. طفا إلا في أسفلها!". خيل إليه أنه سمع هدير روى له عماد، وقال لنفسه: "تبا لأم لا تفكر بقدميه الشارع محاولا إيقاف دراجة نارية بلا دراجة نارية، لا ح له "كبالا" يحرث ."!!الفران، حايد من الطريق مكابح، وهو يصيح: "ما كاينش

:شد الدراجة النارية نحوه محاولا إيقافها، وصاح

!!ـــ وصل كبالا

..للتو

:انطلق أصوات من الداخل، تهتف بصوت واحد مثل مشجعي كرة القدم

.(ـــ (ووي.. ووي.. كبالا ووووي.. ووووي

(6)

صمت أواخر ليالي في هدأة الليل البهيم، تلوح القرى المجاورة والبعيدة غارقة في النجوم تسبح في الفضاء السحيق ..الشتاء الكئيبة. يتناهى نباح الكلاب متقطعا وبعيدا ..تحرس القمر الشاحب، وقد توارى خلف السحب

الساطعة تسلب ليل قبالة البيوت، نصبت خيمة كبيرة في الباحة الواسعة، إضاءتها وجوه الفلاحين، القرية صمته الجليل وظلامه الدامس.. يلوح الحزن على صفحات

متحلقين حول صواني ..المتناثرين داخل الخيمة، مشكلين جماعات صغرى، متفرقة
الفقيد ــ بكلمات مختصرة الشاي وأطباق الكسكس، تحدثوا بصيغة الماضي عن الجد
بقريته التي لم يفارقها إلا لماما.. كأنما ينتزعونها انتزاعا من قلوبهم ــ عن تعلقه
الذي لم يجدوا عناء في حفره في هذه عن مكارم أخلاقه، صلواته وحجه، قبره
حلول الظلام.. ثم انساب الحديث إلى المطر الأمسية، وهم يدفنونه على عجل، قبيل
الزراعية، كراء المراعي، غلاء الأعلاف، وأمنيتهم الشحيح، توقع ضعف المحاصيل
وتزويدها بمحرك... وبخطوات حثيثة يتنقل الأخوال القديمة في حفر بئر أخرى
العزاء حاملين أطباقا أو صواني، وكلاب الدوار تروح والأعمام بين الخيمة وبيت
صامتة كعادتها في ليالي الأعراس والمآتم، تبحث متكاسلة عن وتجيء بينهم وديعة،
...بقايا الطعام

الداخل يتردد صدى تعلو أصوات فقهاء الدواوير بتلاوة القرآن، يسود الصمت، وفي
يمزقه صوت إحدى أنين خافت لنساء حزانى ممتزجا بدموع أعينهن الملتهبة،
برباطة جأش ورقة القريبات، وهي تنهر النسوة المتكاسلات عن خدمة المعزيات
...مغلفة بقسوة لينة

سألته عن سر ..تأملته المرأة وهوغارق في صمته، حاولت أن تلاطفه، ودون جدوى
..اليوم حزنه، لم ينبس بكلمة، أجابها أحد الندماء بأن جده مات هذا

..لم يهتم لسماع بقية كلامهم

ثقيل تزاحمت الصور في ذاكرته، أحاسيس شتى اصطخبت في أعماقه، أحس بهم
من كان ينزاح عن كاهله، تلك خطوة كان يجب أن يتخذها.. يتألم حين يستحضر أن
بشرط أن وراء قراره اللامتوقع حبيبته التي عبرت له عن رغبتها في العيش معه،
الحب يبارك والديه زواجهما. تساءل: "كيف يتخلى عن امرأة وهي تحبه كل هذا
يستلطفان ويتزوج فتاة بدوية أمية لا شيء يوجد بينهما غير دم القرابة ولا
."بعضهما...؟؟

فكر أياما وليالٍ في التخلص من عبء وافق عليه بصمت سلبي، والقلب (العاشق

...الملاّل) كان في سبات وجداني

مأتم، والجد اتهم يعتصر قلبه الألم، لا ينسى دموع أمه وهي تحول ذلك اليوم إلى وسط القبائل.. ويتهم أبويه أنهما مرغوا سمعته في الوحل بعد أن كان رأسه مرفوع ورش واحد ـــ حتى يرد الأقارب العم بأنه من حرضه ـــ بحكم عملهما المشترك في ..لهم صفعة تزويجهم الخالة لصديقه بعد أن كانت خطيبته

العم أيد قراره قائلا: "يوم الخطبة لم تكن حاضرا معهم، لم تتفق مع أحد... فعلوا كل شيء من دون حضورك...!!".

..الأب أقسم ألا تدخل بيته أية واحدة من ربيبات الشوارع

الحبيبة خوفا من البيت صار أشبه ببيت عزاء، الأم تهزأ من بكائه بعد أن تخلت عنه لك). ولن تجد مغفلا رد فعل أسرته: "كل هذا من أجل امرأة، لا شك أنها (سحرت لقد خسرت البنتين ...غيرك بعد أن (شبعت) من الخروج مع زملائها في العمل معا!!".

الخال الأكبر يشيح عنه بوجهه كلما التقاه في الطريق، يردد بقية الأقارب بأسى: "لن تجد لها مثيلا...!!".

ثيرانه، بمجرد أن والجد بهذه البساطة نسي كل شيء، كل شيء.. كما لو كنت أحد ..أخته يرى أية بقرة من البقرات يعتليها حتى لو كانت أمه أو

ينسى كل شيء.. فرحه النقي في العطل المدرسية بأكبر أحفاده كل هذه السنوات في لحظة.. تهتف الأم:

!ـــ من الآن فصاعدا، لا تضع قدمك في القرية حتى لو مات أبواي

رد بحزم، ومن دون تفكير:

ـــ موافق.

..انسابت دموعه حارة

التصاق جسدها به، واساه الرفاق، كفكفها.. انحنى على المرأة التي لم ينتبه إلى
المنبعثة من فمها، ويده تعبث يرشق بقبلاته مابين خدها وعنقها متفاديا رائحة التبغ
...بثديها الثر

كما تعود كلما أفرغ "كبالا" الكأس في جوفه دفعة واحدة، ردد بصوت طفولي حاد،
واباغي لْحَاااايْمممة رأى نسوة مارات أمام الورش: "واباااغي اللْحمْ مْ مْ مْ،
البذئ، تتضاحكن في غنج، مزهوات رْطَيْبِيْبْيَبَة"، تفطن العابرات إلى غزله الوقح
..بأجسادهن

مدّ "المعاشي" لـــ "كبالا" ما تبقى من الوعاء، طالبا منه أن يتنازل لهم عن العشاء،
:لأنه شره، يحتج بصوت حاد

.(ــ (أنا ولِّيتْ كلب ناكل في الكَميلة

عن حكاية جده حين "وكعادة أبناء الدوار في التندر بهذه اللازمة، سأله "المعاشي
العاشر.. ظهر مقدم نشرة رأى أول مرة التلفزيون. كان "كبالا" طفلا في ربيعه
:الجد إلى "كبالا" مشدوها قائلا الأخبار مستهلا كلامه بتحية "السلام عليكم"، فالتفت

!!(ــ (هو عرفني وأنا معرفتوش

في حالة سكر وهو "عند سماعهم كلمة التلفزيون تذكروا المسجلة التي حطمها "كبالا
تلك الليلة، ومن دونها ينزلق في ظلمة الدرج، حزنوا لفقدانها ولم يهتموا لأنينه
.وفائض لعناتهم صارت سهراتهم أشبه بمأتم، فصبوا عليه جام غضبهم

:مع تباشير الصباح، تسلل "المعاشي" من الفراش، هز "كبالا" من كتفه

ــ (ماغادي تمشي تحرث آمسخوط الوالدين)..؟

الحقل والورش.. بين النوم واليقظة، رد بصوت متهدج بأنه لا يمكن أن يعمل في

سمحمد يكفي أن يدبر لهم المال. تلك شؤون أخيه (بو الرْكابي).

جلابيبهن مغادرات تستيقظ النساء الأربعة عند سماع حديثهما الخافت، يرتدين البوابة الحديدية، الحجرة في صمت وهن يتثاءبن.. يسبقهن "المعاشي" واقفا أمام يلتفت يمنة ويسرة، ثم يشير إليهن بيده أن يخرجن بسرعة..

أيام في صباحات الآحاد يغرق الحي في صمت آسر مغرٍ بالخمول، عكس بقية الوحيد الأسبوع، حيث تدب فيه حيوية وصخب مبكرين، منبعثين من ورش البناء تخترق الستارة في الحي.. تغازل شمس الضحى وجه "بعية" النائم قبالة النافذة وهي رفيقيه.. "كبالا" يتلكأ وهو البالية.. يلقي نظرة على عقارب الساعة، يسارع بإيقاظ يتمطى في فراشه كبغل يتمرغ في التراب..

فوق الحصير، يقدم تنعم القرية بهدوء غير معتاد، داخل الخيمة تتناثر بعض الأقارب الخبر، ولم يصل غير "المعاشي" تعازيه مدعيا أنه كان في الدارالبيضاء حين بلغه هذا الصباح...

البناء، عن الابن يلوح الأب مطرق الرأس مع أحد الأخوال، يتحدثان عن أوراش مسؤولية الإشراف على العاق.. الذي لا يريد أن يصير رجلا، لا زواج ولا تحمل صارما معهم.. لم يفكر الورش، ويقضي اليوم في المزاح مع العمال بدل أن يكون يبعده عن أولاد دوار حتى في أن يظهر أمام المعزين.. يقترح عليه الخال أن ورش الحاج، ويكتفي بأن الدحوش: (بعية وكبالا والتباري..)، وأن يتنازل له عن مْعلم "يعول عليه في كل "يزور الورش، من حين لآخر، زيارات عابرة: "عندي شيء".

أطرق الأب برأسه صامتا موافقا..

وجاءهما صوت الخال الأكبر، يلوح بيده في الهواء هاشا على الغنم وهو يشتمها كعادة الفلاحين...

وأزياء العمل، قاموا بجمع أغطيتهم، تشميسها فوق الجدران، وتصبين بعض الثياب

ثلاثتمهم ــ الورش، قرابة الساعة الثانية عشر تناولوا وجبة فطورهم وغادروا ــ تشده من ثيابه ..مدججين بضحكهم الصاخب، لاح لهم عماد في شجار مع الجارة :تجره داخل بيتها متوسلة

ــ حرام عليك! حتى لو كنت كلبة لا تعاملني هكذا.. ثلاث سنوات لم أرك، وتمر من أمام البيت وكأني لست أمك..؟؟

...عقدت الدهشة ألسنتهم

أُمّ صديقي؟ أيمكن قال لنفسه: "أيمكن أن تكون هذه المرأة التي دوختني بشهوانيتها ."!!أن أصارحه أني أشتهيها وتشتهيني.. ولكن؟؟ يا الله

(7)

معنى، فرّق أشار إلى رفيقيه أن ينتظراه بعيدا، ولمح في عيونهما نظرات ذات أمام البيت، التجمهر الصغير لبعض متطفلي الحي، وطلب من عماد البقاء في مكانه مسعورعلى أهبة شدّها من يدها إلى الداخل خلف البوابة، وفي داخله ذئب الاعتبار، والانتقام من الانقضاض مكشرا عن أنيابه، همس الذئب: "حان الوقت لرد خياناتهن مع رجال أكثر نذالة كل بنات حواء، مضى زمن البراءة.. ابتلع مرارة !!الحالات تماما مثلما تقتضي الضرورة الفنية، في هذه

."!!..فلتحاول أن تبدو بمظهر الفتى الشهم، لا بأس

الأفكارعلى أن وفي رحم خياله تشكلت فكرة كتابة قصة قصيرة عن هذه الأم، تلح وبدوت أمامهم يحرر من ظلمات سجنها.. "لا بأس إن خدعت قراءك المفترضين، وليست نهاية العالم إن فارسا نبيلا في زمن الرداءة، لست نبيا، لست النذل الوحيد، برر لنفسه كل شيء).. تخليت عن مبادئك مرة واحدة مقابل نزوة عابرة، (هكذا ولو بدا مستهلكا، لكنه سأحاول الليلة أن أرتب أفكاري، وأختار لها كعنوان، حتى ."!!(الأم قريب من أجواء هذا النص الوليد: (عفوا أيتها

بين ابن كل هذه الخواطر جالت في رأسه وهو يتجاوز مسافة خطوتين فاصلتين

تلك وأمه.. ومثلما يحدث في بعض الأوقات الحرجة، دس يده في جيبه منتشلا مطمئنا الورقة السحرية، التي تضم اسمه ورقم هاتفه ومسنجره، وربت على يدها وهو يدسها في راحة كفها في ثقة، متعمدا أن يتحسس نعومتها:

ـــ لا داعي للقلق، أحترم مشاعرك رغم أن ما حدث لم يكن بإرادتكما.. ثقي أني لن أرتاح حتى يعود إليك.

باستعلاء، أحس بها اختفت تلك القطة المتنمرة التي تعودت على أن تخاطب الآخرين تتبس بكلمة تتضاءل صامتة ـــ حين عرف نقطة ضعفها ـــ غير قادرة على أن.

ـــ لا تخبر أحداً!

قالتها وهي ترفع عينيها إلى الورش

أدرك أنها لا تود أن يعرف البناؤون حكايتها.

ـــ عماد مثل أخي..!!

وقرأت في عينيه نظرات شبقة سادية لم يحاول أن يغلفها بأية مشاعر رقيقة.

تستريح تلك بثقة واعتزاز ضم أصابعها البضة وأحكم قبضتها فوق راحتها حيث تريدينه تجدينه في الورقة الصغيرة الملفوفة بعناية فائقة.. كأنما يقول لها: "كل ما الورقة، لا تتأخري، يا عنقود الأنوثة الباذخ"!!

يتذكر هذا الشاب، عند محطة الحافلات، التقوا بعبد الرحيم، سأله إن كان لا يزال عناق حميم، وقد أثاره ذلك مشيرا بيده إلى عماد، تأملهما بحميمية وهما يغرقان في ولو تبدلت الملامح قليلا. لمح إلى النداء الخفي للقلوب المحبة التي لا يخطئ نبضها، إلى عماد: "هذا من كنت تسأل عنه"، لا عبدالرحيم أنهم سيتركونهما.. وجه كلامه حت لهما الحافلة رقم ٢:

ـــ انصرفا قبل أن تحتل كل مقاعدها، أمّا أنا فسأذهب مع هذين المعتوهين إلى سوق

...الحمراء

والبنايات التي حولهما، في انتظار قدوم الحافلة رقم ٣ انشغل بتأمل ملامح الوجوه
خادمة الجيران التي لا أثار اهتمامه صمت "كبالا" حين مرت من أمامهم نادية،
الصغيرين، كانت تحمل شيئا في يعرفان سوى اسمها من خلال نداءات ابني مشغلتها
الوحيد، شابة في ربيعها الخامس يدها، تعودوا أن يروها ترتدي الحلباب السماوي
يسلب العقول، وعينين لا تخطئ والعشرين.. بقوام كغصن البان، وجه بدري صبوح
.سهام نظراتها القلوب

مضطربة.. لعله تأمل صمت "كبالا"، كات يعرف ما يجيش في دواخله من مشاعر
بطريقته الخاصة، يصمت نوع من الحب الذي لا يمكن لـــ "كبالا" أن يعبر عنه إلا
تخالجه وهو يرتكب غير قادر على الكلام، يعبدها في صمت، حتما تحس بما
تخلو إلى نفسها.. حماقاته اليومية كلما أبصرها، ولعلها تضحك مشفقة عليه حين
الكهربائي، وضحك "بعية" التفت إليها يشيعها بنظراتها وهو هائم، فاصطدم بالعمود
:حتى دمعت عيناه قائلا

!!(ـــ (وا كِي دِرْتِي مع الحُبّ والشْتا كَاتْصُبْ

الساخرة لمح أطيافها وعربد "كبالا" مثل طفل مدلل حاد المزاج، نفس الابتسامات
الحافلات.. خمن أن منظره على شفاه النساء الواقفات إلى جوارهم في انتظار
يراه أن يكون رقيق القلب، البدوي وملامحه الجامدة وجسده الضخم لا توحي لمن
...ويحب بعنف رومانسي

...يتعمد "بعية" أن يسمع النساء المجاورات سخريته منه

!!ـــ كِي دِرْتِي مع الحُبّ والشْتا كَاتْصُبْ.. سيرْ الحمرا شْري شِي كَبّوطْ

استشاط غضبا وطارده وهو يرشقه بالحجارة خالقين جوا مرحا بدد بعض توتر
..الحافلات التي تأخرت

..كان يحس بما يكابد "كبالا"، "إنه الحب ابن الكلب!"، هتف لنفسه

كانوا يشفقون عليه من (بهدلة) الحب ورغما عنهم يضحكون، ارتسمت على شفتيه
.(ابتسامة وهو يتذكر يوم ضحك بعية حتى (بال في سرواله

الورش، وتجاوزه هائما مرّ كبالا بالبرويطة (الناقلة) حاملا كيسي أسمنت من أمام
لمح نادية، ويعلم أنها لم على وجهه، بدل أن يدخل عبر المرآب سرح بعيدا... حين
أمامه غير عابئ بما حوله وهو تبتسم في وجهه ولو مرة واحدة، بقي يدفع الناقلة
الورشة، وذاب في سحر الالتفاتات يلتفت خلفه كعاشق متيم.. غير منتبه أنه تجاوز
.والشارع الطويل يرجع صدى صوت عجلة الناقلة

واش غادي) :وينتشله من شروده صياح عمه "التباري" وهو يصب عليه جام غضبه
يعطيك شي مصيبة.. نباتو الليلة هنا.هارا السيما أمسخوط الوالدين. سير اتزوج، الله
شفتيه ابتسامة طفولية، شوهتينا بحال ما عمرك ما شفتي العيالات..). ترتسم على
المعهود بأن يحضر رب ويستدير غير مأسوف على المسافة التي قطعها رغم تذمره
أكتافهم، وعجلة الناقلة تردد ذلك العمل الأسمنت بدل أن ينقلوها من (الديبّو) على
.صمت الأماسي الشتوية الصوت المزعج الأشبه بنعيق البوم ممزقا

وينتقم من يسخرون منه، يلوذ بالصمت ويصب حنقه في كومة الخرسانة المسلحة،
كهولته التي إهانات عمه في صمت، يدفع إليه السطول بلا توقف، ودون أن يرحم
تريد أن تعمل. " :ماعادت تستطيع مجاراة عنفوانه، ولا يعطيه فرصة لالتقاط أنفاسه
."..خذ، حتى تنام مع الدجاج، وتوقف عن الشكوى مثل العجائز

:في ظلمة الاصطبل وهما يختلسان متعتهما المحرمة، بحبور تهتف زوجة عمه

.(ـــ إنه ينام بمجرد أن يضع رأسه على (المخدة
.ـــ جيد. أعرف، لأني.. لا أدعه يحك رأسه في العمل

يراها في حلمه ..يتعاطف مع "كبالا" وهو يحكي له عن حلم الظهيرة، حلم بكر طاهر
يسترخي على تغدق عليه بابتسامة لؤلؤية تنعش بمطرها صحراء أيامه، وشعرها

يختصر عاشق كل منكبيها موجة رطبة، وفي عينيها تغرد البلابل، كان يدرك أن
...حوله بهجته في الظفر بمجرد ابتسامة طفولية عذبة، تنسيه كل ما

.ــ هذا أجمل ما في الحب، يجعلك ترى الكون جميلا
!ــ في الليل، بمجرد أن أتذكرها يفارق جفني النوم. يا ربي

.وتنهد ملتاعا

جانبه عماد، وقد لقطة بانورامية من فوق، يشاهد عبد الرحيم وهو يخلع قميصه وإلى
خلايا رأسه وبددت توتره (بدا يستسلم لإغفاءة لذيذة، بعد أن داعبت رائحة (الكيف
حجرته، ويطفئ المصباح، الداخلي، يسدل الستارة، بعد أن أحكم إغلاق باب
..ويتصاعد أنين خافت

...ويغرق المكان في إظلام تام

الرخيصة على بين الممرات الضيقة الفاصلة بين صفوف باعة يعرضون بضاعاتهم
المشهد عادي ..الأرض، يلمحون رجلا بعكازين وساق مبتورة، يمد يده نحو المارة
البلاء المسلط جدا ورتيب ولا يحرك أي شيء في دواخلهم، "لا يعور ولا يعرج إلا
.."، علق كبالا.. سألاه مازحين عن معنى عبارته

..ــ لو لم يكن أعرج لكان شيطانا، ربما لهذا عاقبه الله

...وعلقا بصوت واحد

!ــ يا سلااااااااااام

شهامته بعد وانفجرا ضحكا، ثم طلب منهما درهما وهو يتحسس جيوبه، استغربا
متسولة ترضع انصراف الكهل، وراقباه في صمت، ولمحاه وهو يرمي الدرهم أمام
الرمادية المتصلبة صغيرها.. رغم قذارة ملابسها، كان ثديها يطفح أنوثة وحلمته
...تلمع

!!(ـــ (ابن القـــ... ماعندوش فين يرقد

نظر إلى ساعته وهو يسمع آذان العصر، فأيقن أن الموعد أزف، وحان الوقت ليودعهما...

عميق وهو يلمح أحس براحة داخلية عميقة وهو يستقل الحافلة رقم ٨، خالجه ابتهاج بإمكانه الجلوس مقعدا شاغرا إلى جانب نادية، وسألها في لطف بالغ إن كان...

(8)

حلوى.. وبعض كانت منشغلة بأكل شيء ما لم يعره انتباها، كسرة خبز أو قطعة كيسا التعب يستلقي فوق ملامح وجهها الطفولي الصبوح، وفوق فخذيها تضع عبّرت له بلاستيكيا صغيرا.. تحاشى التطفل على خصوصياتها، لاذ بالصمت بعد أن بابتسامة صافية عن موافقتها...

يعبر الشارع دافعا "لاذ بالصمت، ألقى نظرة من النافذة المجاورة لها، تخيل "كبالا لحظة تدوم دهرا، النقالة، غير مكترث لضجيج منبهات السيارات، وقد توقف حزينا كسيرا، تخيل (يتأملها، يرنو إليهما سوية، ثم يهيم على وجهه بـــ (بروبطته يده على فمه المشهد بكل تفاصيله، فندت عنه ضحكة كبح جماحها واضعا..

مزقت الستارة التي بينهما مستفسرة عن سبب ضحكه.

بنبرة اعتذار:

أصدق أنه ــ لا، لا أسخر منك.. بالعكس، اصفحي عني إن خانتني الكلمات.. لا أتكلم يمكن أن تجمعنا الصدف السعيدة، وأرى ملامحك عن قرب حتى لو لم..

أطرقت برأسها..

عليك، كلما رآك ــ صدقيني كل ما في الأمر، تذكرت صديقنا أبو (بروبطة).. حرام الطريق (تْلِيفْ ليه) عقله، يصير كالأطفال حين يضيعون النقود في.

ابتسمت رغما عنها...

ـــ يبدو أنك (عزيزة عليه)، وإن حدث له أي مكروه.. فأنت الملامة

ـــ إلى أين أنت ذاهب؟

أما أنا ..ــــ تائه مثل (كبالا) لكن بدون (برويطة)، على الأقل، لا لوم عليه فهو مغرم مثل أي فما عاد للحب مكان في قلبي.. صدقيني ليس لدي أية وجهة معينة.. تائه (بوهالي). وأنت يا زينة البنات؟

...ــــ في طريقي إلى بيتنا

.ـــ أود أن أسألك سؤالا، لكنني محرج

..ــــ ممكن

ـــ هل أنت متزوجة؟

..ــــ متزوجة وغير متزوجة

ـــ كيف؟ ولم أنت حزينة دائما، امرأة في جمالك لم تخلق للحزن؟

ـــ توفي زوجي قبل أشهر في حادثة سير. هذه صورة ابني، عمره عشر سنوات، وهذه ابنتي ثمان سنوات...

فكر أن يقول لها: أحس بقلبه يتمزق، ود لو يعتذر عن كل ما دار في عقله الباطن، فالأب يختار زوجة من "لا يوجد رجل يقبل أن يتزوج أرملة، لكن لو توفيت الأم، قبلت أن تتزوجي وأنت المعزيات أو يتزوح خالة أبنائه..". فكر أن يسألها: "لم صغيرة السن؟"، بدا له سؤاله غبيا...

رن هاتف شيطاني في داخله...

ـــ اطلب منها رقم تلفونها، ألن تغتنم هذه الفرصة الذهبية، هذه أرملة ولازالت في عمرالورد و (...) يا غبي!

ـــ لا يمكن، حتى لو كانت آخر امرأة في العالم.. تخيل نفسك مكان ابنها أيها الحيوان!!

أيقظته من شروده وهي تسترسل في سرد حكايتها..

ــ لي أخ واحد، وأبواي دائما ينصحاني أن أنسى ولا أفكر كثيرا في ما حدث.. من أجل ابنيّ.

إحدى القرى، لاذ بالصمت، ولم انتبه إلا وهي تودعه حين توقفت الحافلة قبالة غرق في استرخى فوق مقعده بعد أن قل عدد ركاب الحافلة، وخفت ضجيجهم، شروده كسير القلب، والدمع يكاد يطفر من عينيه..

جام غضبه يشيع عبد الرحيم عماد الغارق في خطواته المرتبكة ودموعه، يصب يصفها، تذكر أول على الزمن المقيت، وأمه.. "العاهرة التي أنجبته"، كما تعود أن سرواله وتتفحصه، مرة أحس بها بالرعشة الجهنمية تسري في بدنه، وأمه تنزل وسامته الصبايا خشية أن يغتصبه المراهقون، كان طفلا فتان المحيا، تغار من..

يجد متعة ناقصة يستعيد متعته كلما دلف إلى البيت، وهي تحذره من الغرباء. صار التلاميذ بالانصراف لا تكتمل إلا... حين أجلسه المدرس فوق حجره بعد أن أمر...

حين بدا يدرك ومثل أي مراهق، انجذب إلى الجنس الآخر، واسودت الدنيا في عينيه شهوانية شبقة، تتسلل معنى هذه الكلمات: لقيط، مجهول الأب، ابن حرام.. ابن امرأة الجارات الثرثارات يرددن من حضن أزواجها ليلا، وتقابل أحد عشاقها.. يكاد يسمع خناجر صدئة مسمومة فؤاده هذا الكلام في طريقه إلى المدرسة أو البيت، فتخترق.

تحمل كل شيء في صمت مرير..

كان يعرف أن الرجل الذي كفله لم يكن أباه، حمل اسم رجل كان تردد أنه مات وهو لا زال جنينا..

لم يكن يعنيه في شيء كل ما حدث ويحدث..

أدرك ــ منذ نعومة فخذيه ــ أن الدنيا تعانده، تسلبه كل بهجة في حين لا تبخل على الآخرين.

حين اختلت به عشيقته، وتكرر الأمر، صفعته بكلامها: "أحتاج إلى رجل حقيقي

وليس امرأة مثلي!!".

انتقم من رجولته الناقصة بالانبطاح...

لذاتهم، وينهالون عليه لم يتحمل آلامه النفسية وإحساسه بالمهانة حين يفرغون من
برب السماوات لكما وركلا.. توجع في صمت، وجاهر بكفره ــ وبتعبيره ــ
كل شيء والأرض الذي خلق الذكر والأنثى والخنثى... لأنه المسؤول عن!!!

أخرج من جيب داخلي بمعطفه دفترا صغيرا تعود أن يسجل به أفكاره العابرة،
وشرع في الكتابة...

الزمان ليلة شتوية، المكان بيت منزوٍ، غرفة باردة، فراش معطل.. تتمرغ المرأة)
في الفراش، والزوج يعزف سمفونية لليل بشخيره العميق.

الصغيرة الهادئة.. يطن في رأسها كلام الجارة العجوز التي التقتها في حمام البلدة
عليها أن تساعدها نظرات الشمطاء إلى جسدها العاري لم تكن بريئة، وهي تعرض
وسألتها إن كانت أما بأن تمرر الصابون على ظهرها.. فشرعت تتغزل بمفاتنها،...

مرت سنتان على زواجهما، ودون جدوى...

سألت صديقتها كيف تنجب، فجاءها ردها بغنج أنثوي وضحك فاجر: "ما عليك
سوى أن ترفعي رجليك طوال الليل، ولا تذهبي الى الحمام".

دلتها العجوزعلى فقيه لا يشق له غبار، الزوج لم يهتم بحكاية الإنجاب بسبب تدينه
وإيمانه...

كانت تحس بالفراغ يغلف حياتها...

حين ترمق الجارات وهن يضربن أبناءهن في الشارع بسبب (شقاواتهم).. تردد في
نفسها: "إنهن لا يقدرن نعم الله عز وجل".

والإيمان لم تصارح زوجها برغبتها في زيارة الفقيه حتى لا يتهمها بالتخلف

أثار انتباهها ستارة بالخرافات.. حينما ولجا ذلك الزقاق الرهيب أثارها سكون المكان، تتذكر أي شيء غير بيضاء بعرض المحل تمتد حتى السقف، لم تحس بما حدث، لم القامة، ضخم البينان، رائحة بخور خانق، وجه عجوز كريه بلحية بيضاء، طويل بعد رعشتها الأولى، وجدت نفسها تقارن بينه وبين زوجها الضئيل الذي ينام ..ويتركها على الجمر

...كل ما تتذكره أنها غابت عن الوعي

أنها وأحست بالأرض تدور من حولها وهي تكتشف أنها عارية، صعقت، أدركت يظفروا اغتصبت.. رغما عنها وهي الأبية التي اشتهاها كل عزاب البلدة دون أن .(...بابتسامة رضى منها

:انتبه إلى صوت فتاة الحافلة تنبهه إلى وصولهم إلى نهاية خط الرحلة، مازحته

ــ ماذا تكتب؟ هل تشتغل مع أصحاب الإحصاء؟
!!..ــ نعم، وقد سئل أحدهم عن ماشيته.. فأجاب: أنا حمار وخويا حمار

....وانفجرت ضحكا

فالنكتة ذات مغزى سياسي، كلماتها السطحية تعني أن له حمارا ولأخيه حمارا... !!!لكن ما وراءها أعمق: أنا مغفل وكذلك أخي

أوراقه.. مستغربين انتحى جانبا جالسا على حجر، والناس يتأملونه وهو منكب على أنه يكتب تقارير أن يكون شاب في مثل سنه لازال تلميذا، أو ربما اعتقدوا للسلطة..لا يدري كيف ينظر إليه القروييون؟

التفاصيل، لا سيما فكر للحظة أن القراء المفترضين سيستغربون كيف عرف بتلك الصعب التمييز بين وأن مراد لا يعرف هذه التفاصيل عن ماضي أمه، وسيصير من عن أحداث مشابهة "الواقعي والخيالي في النص. لمعت في ذهنه حكاية "المعاشي ...لامرأة شبقة في الدوار وحكايته مع أحد الفقهاء

عليها العجوز أن تخبر وفي اليوم التالي طلب منها الفقيه المبيت في بيته، واقترحت) وسيرفض الزوج فكرة زوجها أن أختها في حالة مخاض، ويجب أن تكون بجانبها، الحضور معها...

ولم تحس إلا وهي تمطرها بقبلات ممتنة...

كانت العجوز تبتسم في خبث، كأنما تعبر بامتنانها اللامحدود للشيطان.

بيد أن أغرب ما أثارها هو طلب الفقيه، وطلبت من العجوز أن تشرح لها

ـــ إنه يريد رجلا.. طبعا هذا يحتاج إلى أن ينام معك، ويسكب ماءه في كأس...

كان يبدو لها غريبا ما تسمعه، أحست بوخز في قلبها.. لكن حاجتها لإسعاد زوجها تجعلها تفعل المستحيل.

ووعدتها العجوز بإقناع أخ لها، وطمأنتها: "حتما، سيقبل هذا الدور!"

أغلق الفقيه كتابه وانصرف..

في الظلمة كان قلبها وعيناها يبكيان، غطت وجهها بوسادة وهو يضاجعها.. وفشلت كل محاولاته في أن يرفع الوسادة لكي يقبلها...

وأحست به يقترب من غيبوبة اللذة لكنه لم...

حاولت أن تتملص من تحته لكنه أحكم قبضته عليها:

ـــ أنت حمقاء بالتأكيد؟

أدركت أنها خدعت من طرف العجوز وأخيها...

أحست أنها لا شيء، ليست أكثر من عاهرة رخيصة، أو هكذا صارت(...).

أحس بوجع يخترق خلايا رأسه، توقف عن الكتابة..

...فكر في حبكة مقنعة تجعل القارئ يقتنع بسقوطها

تذكر حكاية المعاشي مع الفقيه، وليجعله في هذه القصة أخ العجوز، وليسجلها في صفحة أخرى، ربما يحتاجها لاحقا عند تنقيح مسودة النص.

(فرح باقتراح الفقيه بأن ينام مع إحدى زبوناته.. لم ينتبه إلى أنها قامت بعصر شيئه بمنديلها.. محتفظة ببعض سائله اللزج...

شكل من في حركاته وسكناته صار يهذي أمام الجميع برغبته في الزواج، بأي الأشكال وهو الذي لم يقع في مصيدة كل بنات القرية رغم كل الإغراءات.

استغرب صديقه انقلابه المفاجئ، سأله عما جرى له، فحكى له بالتفصيل ما حدث مع الفقيه الصحراوي، ودّعهُ ووعدُه بحل مشكلته...

لم يسأله عن الوسيلة لأنه خمن أنه سيستكتب حجابا عند فقيه آخر...

رأى نفسه في منامه فوق سحابة، وكل شيء من حوله كالذهب يلمع، وامرأة تصرخ ملوحة بعصاها تحاول أن تصيبه...

أحس بالنفور منها...

كاد يجن في منامه...

في الصبح قابل صديقه، سأله إن كان مازال يفكر في الزواج، فرد عليه بسخريته المعهودة:

ــ هل أنت أحمق؟ أأتزوج تلك....؟).

توقف عن الكتابة ملتقطا أنفاسه، ثم استطرد..

(بيد أن طلبت من زوجها الرحيل بدعوى الخوف على وليدها من أذى عين الحسود، وكل خوفها الحقيقي كان من العجوز التي صارت تبتزها بأن تلبي رغبات أخيها،

...طالبي المتعة الذين يطرقون باب بيتها

..أغرتها بأموالهم وعيرتها بفقر زوجها وعقمه

ولأنها كانت فاتنة، كانت كل الأعين تتطلع إليها.. في كل خطوة تترك خلفها آلاف التنهدات...

..كانت فرحتها بوليدها تكبر معه كل يوم وكل لحظة

...استعانت العجوز بإحدى عاهراتها لتنتقم منها

..وجد الزوج نفسه مطلوب القبض عليه

...إحداهن تدعي أنه أب لقيطها

سمعته في البلدة كان فرحا بتقرير الطبيب الشرعي ببراءته من التهمة التي لطخت تضرع إلى الله في ..وهو الرجل التقي الورع الذي لا يرفع عينه إلى أية امرأة ابتهال ودموع الفرحة تملأ عينيه، فقاطعه الضابط بجفاء:

....ـــ هذا ليس مسجدا يا هذا... أنت لا تنجب، ابنك ليس ابنك.. ليس من صلبك

...أحس بالأرض تهتز من تحته، وأغمي عليه

طلقها، بعد أن فهم ـــ متأخرا ـــ سر إصرارها على الرحيل من بيت أسرته والعيش بعيدا عن مقر عمله...

...وجدت نفسها مجبرة على الرحيل من القبيلة، تطاردها كل اللعنات

الضياع.. وقبلت لم يكن امامها غير العجوز توسلتها، قبلت قدميها حتى تنتشلها من الصغيرة أن تعيش مع أخيها ولو من دون زواج، بعيدا عن البلدة.

..بعد هروبها مع أحدهم

لم يكن يهتم أحد جن جنون طليقها، وكلما رأى امرأة فاتنة، بدأ يرشقها بالحجارة، بالحجارة، قاموا بنفيه بهذيانه وتسكعه في الطرقات، لكن حين صار يرمي العابرات بعيدا عن البلدة...).

والكراسة جانبا، وانتبه أحس بالامتنان والحبور عند هذا الحد من الكتابة، وضع القلم قبل العودة إلى أن الغروب قد أزف.. فكر في جولة عابرة بالقرية...

الأفق بحمرة تمطى قبالة الحقول، رنا إلى خضرة الزرع القصير، والشمس تلون جارف يهزه إلى قانية، تأمل ديكا يطارد دجاجة صغيرة فاردا جناحيه، أحس بحنين مكان في العالم، أحس قريته وطفولته العذبة هناك، استغرب كيف أنها تبدو له أجمل أي مكان آخر، ولو في أنه تحت سماء أخرى.. ذلك الإحساس لا يمكن أن يغمره في الريف التشيكي.

إحساس عشرين خالجه إحساس بالشوق إلى البيت، وسرب عصافير يطير قريبا منه، القلب والذاكرة، سنة منصرمة.. "نفس الشعور الطازج في تلك الطفولة المعطرة في يقاوم"، هتف لنفسه، حتى لو لم تكن طفولة سعيدة بكل الأحوال، فللذكريات عبق لا العصافير وهي تتسابق وألفى نفسه صبيا فوق سطح البيت، كل مساء، ينتشي بزقزقة في اتجاه أعشاشها..

وبحنين فائض تأمل الحجارة المكسوة بلون تراني، وآثار حوافر دواب وأغنام على الطريق الزراعية...

تشاغل استرخى في المقعد الخلفي بالطاكسي، أخرج كراسته الصغيرة وقلمه، بالكتابة، مبددا قلق انتظار انطلاقها بعد أن يكتمل عدد المسافرين..

(9)

المغيب بهدير تنفس الصعداء، والسيّارة تشق الطريق المحفّر.. ممزقة سكون إحساس بهيج محركها، أحس بالامتلاء الداخلي غبّ كتابة نصه الجديد، خامره من المفاهيم. لا بالتفاؤل: "إنه يختلف عن كتاباتي السابقة، وحتما سيغير الكثير الآخرين أعرف لم أتعاطف مع الشخوص حد الذوبان.. بغض النظر عن نظرة

قبل، هل بدأت الضيقة إلى فضائحية الأحداث؟ هذا الإحساس بالشفقة لم أحس به من
."أقترب من نبض المجتمع؟ هل بدأت أقترب من الناس؟

رغم إحساسه أطلق بصره من خلف زجاج النافذة متأملا وداعة الأشياء من حوله،
لازمه منذ المزمن بالحزن الغامض، والملل القاتل في مساءات الآحاد.. إحساس
و(لن) أعرف شيئا طفولة بعيدة: "أحيانا يخيل إليّ أني لم أعش ما يسمى بالطفولة،
الذات الانطوائية، اسمه الفرح.. تماما مثلما أحس أن الكتابة كانت بلسما لجراح
الجوانية، وحاجتي الملحة إلى فتجلت الرغبة اللاّشعورية في التعبير عن هشاشتي
."...حنان امرأة

..في غرفته وحيدا

...على ضفاف السيليكون

تبدو له "نانا" لكي تدخل المسنجر.. على القائمة (sms) أرسل إليها رسالة قصيرة
تنظر إلى العالم بعيون متواجدة، التي صار يتجاهلها منذ مدة.. لا رغبة له في امرأة
تقاسمه بعض همومه.. طفلة، ولا في المزاح معها وهو في أمس الحاجة إلى من
..قنة) رأسه) يحتاج إلى امرأة تمتص بأسفلها أحزانه من أخمص قدمه إلى

..يقوم بوضع شارة (بلوك) على اسمها في القائمة

إميلا: (حبيبتي، رأى شاميته متواجدة في أحد المنتديات.. خفق قلبه، أرسل إليها
الجديدة قبل أنتظرك على المسنجر، بالمناسبة.. أرسلت إليك نسخة من قصتي
.منتدى إرسالها إلى المجلات الإلكترونية، ولا رغبة لي في نشرها في أي

.(أبوووووووووووسك

جاءه الرد بعد لحظات: (سأتصل بك هاتفيا بعد نصف ساعة، لا أستطيع دخول
.(..المسنجر الآن

صوت الموسيقى تناهى إلى مسامعه صوت والديه، بعد عودتهما من البادية.. رفع

امتدت يده إلى حتى يتوغل في عزلته الباذخة، واضعا السماعتين على أذنيه،ثم
..((السندويش

أم عماد، أحس وصلته دعوة إضافة من امرأة كتبت في حيز الرسالة القصيرة أنها
تسأله عن ابنها بفرح بهيج يسري في عروقه.. أضافها للتو، بعد التحية كتبت
..الزمان والمكان بحروف لا تينية.. بحروف عربية اعتذر لها أنه كان مشردا في

ــ هل أنت شاعر؟
!!ــ مثلك يجعل الصخر ينطق
— ....
ــ متى تحسين بي.. يا لوعة الروح؟؟
— ....
ــ منذ رأيتك قبل عام وأنا لا أنام.. لا أنام إلا بعد أن أضمك إلى صدري وأحضنك
...بقوة و
!ــ وماذا أيضا؟
ــ أظنك وحيدة! زوجك.. أليس في البيت الآن؟
!!ــ في المداومة، لن يأتي إلا صباحا.. وأحسّ بالبرد والوحدة

ينظر إلى الساعة.. عقاربها تشير إلى التاسعة ونصف ليلا. في الخارج يتلاشى
.صياح الأطفال وركضهم ــ مبكرا ــ في ليالي الشتاء

..ــ لحظة، لدي مكالمة هاتفية
ــ من حبيبتك...؟
— ......
!ــ تريد مقابلتك الآن

قفص، لا أحس بالبرد يلسع وجهه في الخارج، وقلبه مثل عصفور يتراقص في
وأحس يحتمل كل هذا الفرح الطاغي.. كانت نبرة صوتها حزينة، اختلج فؤاده،
..بانقباض في صدره، وقد ضاعف تأخرها في دخول المسنجر قلقه وتوتره

!ــ أعرف أن ثمة خبر سيء.. تكلمي
..!!ــ لا أستطيع الحضور إلى المغرب، كم حلمت بأن نتنفس هواء واحدا
ــ لماذا؟ ماعدت تحبينني؟ اكتشفت أن حبّنا مجرد أوهام؟؟
..ــ أرجوك يكفي ما بي، كفاك تجريحا

..وجاءه صوتها مختنقا، مبللا بالدموع

!ــ أوووووووووف. لم تبكين يا امرأة؟
...(ــ لا يمكنني السفر بسبب (الفيزا
...ــ سيدتي، ابحثي عن أية كذبة أخرى، أنت تخفين عني شيئا ما

...ذاب صوتها في النشيج

..ــ تكلمي أو دعيني وشأني
ــ سأقبل ذلك الزوج، رغم أني لا أطيق أي رجل، أبواي ضغطا علي.. ولا يمكن
.أن أعيش وحيدة أبد الدهر
ــ مفهوووووم! وصلت الرسالة. انسيني.. وداعا. لا تحاولي الاتصال بي مرة
!!أخرى، سأعود إلى نساء الرصيف حتى أنساك

وقلبه: "رباه، لم كتب انتابه ألم أحسه فوق طاقة احتماله، طفرت الدموع من عينيه تعاندني ــ دائما ــ هذه الدنيا علي أن أشقى دوما؟ ألأني أحب ببراءة الأطفال؟ لماذا الهاتف المحمول نحو الجدار المقابل له، الكلبة؟". بيدين ترتجفان، وبكل قوته سدد إلى (الكارت) انتشلها من بين البقايا، وضعها فتطاير أشلاء وشظايا.. وامتدت يده .هاتفه الخلوي، وفي الحلق غصة في جيبه، وشتت بقدمه أشلاء

..ــ أنا ليس لدي أية حبيبة، وتلك.. بعيدة عني، بيني وبينها مدن وجبال وصحارى
!ــ كيف تعرفت عليها؟ ولم ارتبطت بها إذاً؟
.ــ دعكِ من كل شيء.. الشوارع خالية الآن، ليس فيها غير القطط والكلاب الضالة

أرسل إليها أيقونة يدعوها إلى احتضانها.. طلب منها أن تشغل (الكام)، أخذ يتغزل

..بمفاتنها، ويترجاها أن تقشر فاكهة صدرها على مهل

كانت تقف في ..بجوار الورش لمح سيارة الشرطة، فاختبأ حتى غيبها المنعطف
حواليه، دلف إلى الظلمة خلف البوابة، سمعت خطواته، أطلت بطرف عينها، التفت
..الداخل، وأغلقا الباب سوية، غرقا في قبلة طويلة

...هو يطوق خصرها، وهي تلف ذراعيها حول عنقه

الخشبية، وضعها في برد الصباح وقف الأب، أمر "كبالا" بإخراج بعض الألواح
يتشاجر مع عمه.. "على الرصيف، ومن داخل الورش تناهى إليه صوت "التباري
إلى بيته، لأن(الحولي لا يتهمه بإتلاف (دوزانه) قائلا بأنه سيأخذه معه ــ كل يوم ــ
...(أو المطرقة أو (الوترة تثقل عليه قرونه).. بدل البحث كل صباح عن الملاسة

يخبره الأب عن وقف أمام البوابة حاملا كيس الثياب وأدوات العمل، منتظرا أن
بدراجته النارية.. بعد مكان عملهم الجديد.. نادى على "التباري"، للتو، وقف الخال
الحديقة الخلفية للفيلا، وزوجته التحايا، أخبره الأب أن المحامي يود بناء حجرة في
يسلم على خاله، سمعه يقول لأبيه: لا تريد (مْعلمين) غرباء في بيتها.. قبل أن
ببضع كلمات، مواسيا في برود، وعاتبه الخال على "اعْطيه ليهم عْطَشْ وتْهَنّا". غمغم
...عدم الحضور، فلاذ بالصمت

:دفع "كبالا" النقالة، فأحدثت عجلتها ضجيجا، خاطبه

!(ــ (زَيّت هاذ الروْيضة.. صبّحنا ع الله

حينما أشار إليه ساعد "التباري" "كبالا" في شحن الألواح الخشبية، وسار خلف الأب
يوما رائعا.. سيعملون أن يتبعه.. كان يحس بما يشبه النسيم يداعب أعماقه، سيكون
ستشرق شمسها، ولن يصدقه مستقلين عن بقية الرفاق، وسيراها اليوم.. بعد ساعة
.."كبالا" حين يخبره أنه قابلها ــ أمس ــ في الحافلة

سارية هنا،جدار ..كان هائما وهو يستمع إلى أبيه الذي يشرح له ما سيقومون به
يجب أن يكون " :واطئ هنا، وشباك هناك... وأنهى كلامه بنبرة الواثق من نفسه

مسقفا قبل ثلاثة أيام".

عند البوابة سمع "التباري" يمازح ابن أخيه:

ــ (هاذ المرة كًاع ما توضرتي وبقايتي غادي سارح)؟؟

(10)

يحفر في الأرضية "انشغلا بتقشير الملاط عموديا.. في موضعي الجدارين، و "كبالا الركنية.. وحتى لا يعزل الخرسانية، حيث ستنتصب سارية فوق قاعدة سارية البيت الحديقة،المشرعة على الواجهة الرئيسة الجدارالمزمع بناؤه الباحة الخلفية للفيلا عن الرصيف الجانبي المبلط الممتد حتى المدخل للمسكن.. جعلاهما يلتقيان عند حافة الداخل في اتجاه الباحة ذات الأرضية المزدانة الرئيس المنحدر للمرآب.. فينعطف تتخللها قطع رخامية صغرى، شبه مهشمة الحوافي بمربعات الموزاييك الأبيض، خطوات، فيصادفه باب الحجرة الملاصق للسور بألوان متباينة، أو يخطو بضع يقابلان الباحة الطويلة، واتفقا على أن يجعلا الخارجي للحديقة وإلى جانبه شباك الممر ــ من جهة الواجهة الخلفية، حيث يقبع تحتها السارية ــ وحتى لا يتضاءل الطابق الأول، وعلى مقربة منه باب موصول سلم رخامي توصل درجاته إلى أن يشرع في بناء الجدار الغربي لوحده حتى "بمطبخ القبو، واتفق مع "التباري السارية، شارحا له أن (الفوندو) الممتد حتى سارية ينتهي و "كبالا" من تسمير ألواح من الثاني الذي سيتوكأ عليه، فوجب مراعاة هذا الفارق الجدار الغربي سيكون أعمق في بناء الجدار.

يصرخ: سمع صوت "بعية" التفت إليه، فوجده يلوح بيده لــ "كبالا" وهو ثلاثة مساكن.. (وااااكبالاااا..) من فوق سطح الورش التي تفصلها بيننهم وبينها لتساقطها كأي "حين اختبأوا بعد أن انهمرت زخات من المطر، فهش "التباري فلاح..

حين سمع صفعة ..كان قلبه ملبدا مثل سماء هذا الصباح، علت شفتيه بسمة حزينة واحدة: (واشْ كا قوية تدوي فوق قفا "بعية". عمه وعبدالرحيم لسعا قفاه بصفعة

.(تْسحابْ راسكْ سارحْ النعاج في الواد؟

...سمعوا صوت سيدة البيت وهي تنادي باسم عبدالله

..''والتفت إليهم "كبالا

ـــ شْكون اسْمِيّْتوه عبدالله..؟ (وضرب بيده على جبينه) أخ خ خ خ. نسيت هذي اسميتي...

.(ارتفع صوت "بعية" مرة أخرى وهو يرقص تحت المطر: (وااااكبالاااااا

...بصوت منغم مرجع رد عليها

ـــ عايزة إيه؟ ماذا تريدين؟

رجته أن يفتح الباب لأن البنت لم تحضر بعد وهي مشغولة بتجهيز الصغيرين للذهاب إلى مدرستهما...

حين وقعت عيناه على نادية، خفق قلبه بشدة، امتقع لونه، أحس بجفاف في حلقه.. فغر فاه، واستدار بسرعة مبتعدا.. كالملدوغ.

ينبهه وتركه يسترسل تأمله في صمت غير معقب.. "التباري" لم ينتبه، ولم يحاول أن
لمحطة القطار التي في حكاياه المتدفقة من أرض أصهاره البيضاويين المجاورة
يحتاجون إلى المال.. يبحث لها عن مكترٍ يستغلها، لأنها بعيدة عنه، وأصهاره
أن كان متأكدا من أن الرجل وإحساسه بالمهانة بعد المال الذي نفقه في الوليمة بعد
رأيه، بعد انصرافه.. ربما أحدهم كان يريد الأرض، ولا يعرف ما الذي جعله يغير
عن عدم مسامحته للعم الذي (ضحك عليه) (عبأ رأسه) بكلام ما.. لينتقل إلى الحديث
السادسة مساءً في دار عبدالمالك الحداد، دون أن وهو يجعله يعمل حتى بعد الساعة
عْطَشْ). إنه غدار خان الملح والطعام وعشرة كل هذه السنين يصارحه بأنه (شادْها
معدودات... وها قد رأيت كم صرف حين مرض مؤخرا.. هذا من أجل دراهم
حين أعطاهم أحدهم مبلغا معينا.. لم ترضَ أن توزع عرق الدراويش، وأشاد به

وعلى كل العاملين حتى الغائبين منهم. لو كان عمك مكانك.. المبلغ إلا بالتساوي، !!..إلينا بالفتات... (أنت لمن خرجتي؟؟) أنت أفضل من عمك وأبيك لخبأ ه، ورمى

عقب بلا مبالاة:

ـــ الناس طوب وحجر..

تظاهر أنه لم يرَ نادية عند وصولها، وأطرق برأسه وهو يضع اللمسات الأخيرة على قالب السارية..

حتى لا يضطرب في "جاءتهم بعد لحظات بصينية الشاي، تناولها منها، أبعد "كبالا فيها بعينين حضرتها، ويوقع كل شيء.. انبته إلى شروده وصمته وهو يحدق يا قلبي. متى تتوب متعبدتين في قداسة.. هتف لنفسه: "لو لم تكن أرملة لـــ (...). آه عن الهوى؟؟".

افتر ثغرها عن ابتسامة لؤلؤية عذبة، و "كبالا" يتميز غيظا، مثل بركان يغلي في صمت..

ـــ شكرا.

ونهره:

ـــ ابْرَك، الله يبّركْ عليك الحْجر..

وعلق التباري ضاحكا...

ـــ نوض، جيب ليك جوج خبزات اخرين.. هاذ الباريزيان ما يدير معاك والو...

ولمح....

للتو، مرت صاحبة البيت بهندام أنيق ورائحة عطرها تسبقها.. جاءت تطمئن على سير العمل قبل ذهابها إلى صيدليتها..

...ــ البيت بيتكم. كل ما تريدونه اطلبوه من نادية

وبصوت واحد شكروها، وعلقت باسمة:

!ــ تْهَلاوْ في عبدالله

رفع بصره فجأة..

اختفت.. كان "كبالا" اختلج قلبه وهو يلمحها تتلصص عليهم، وعندما التقت عيونهما العشاق الطفولي بقربهم من يدفع الناقلة واضعا فيها الآجر، في عينيه يزغرد فرح دراجات نارية يردد: (عاانْ المحبوب، ومثل الأطفال حين يتخيلون أنفسهم يقودون أفرغ حمولتها فوق السقالة.. وأمسك .(عاانْ عاااانْ. حَيِّدْ التباري من الطريق حيدوا عمي وانتاقموا مني، حيدو التْويباري) :(البالة) على هيئة وتر، وراح يدندن وانتاقموا مني...).

تكون أنامل عازف فنان تلعلع قهقهاتهم، ويتأملان أصابعه المفلطحة التي لا تليق أن لا تصلح إلا لـــ ورقيق الإحساس، وعلق "التباري" متهكما: "تلك الأصابع البَغْلي))".

ضحك ضحكا كالبكاء، وأرسل صدره زفرة حارة.

في نفس التوقيت غادروا البيت...

الخاصة بالسقف، بعد العصر، بعد أن صارت الحجرة لا ينقصها إلا النجارة المسلحة للحظات حيث تناولو غداءهم فوق السقالات دون أن يستريحوا ولو..

انصرفوا أمام نادية..

كانوا يتحدثون عن برنامج العمل في اليوم الموالي وضرورة الحضور مبكرا..

كانت أم عماد تقف أمام البيت مع صغيرتها..

تلاشت حين لمحت ارتسم على شفتيها طيف ابتسامة لم يرها سواه، لكن سرعان ما

ونادى "كبالا" على خلفهم نادية، وأحست بانقباض في صدرها.. توقف أمام الورش نادية ــ التي مشت "بعية"، فصفقت الباب في عنف خلفها معنفة صغيرتها، وترمق بمحاذاتهم مطرقة الرأس ــ بنظرات نارية...

وهو يعاتبه على أن هاتفه لا يرد كلما اتصلوا به، يجدوه "من فوق أتاه صوت "بعية خارج التغطية...

ــ أطفأته إلى الأبد، أنا حر، ما شأنك؟ هل لديك أي اعتراض؟؟
ــ وذاك...

يلمح بيده من فوق إلى الجهاز الظاهر من جيبه...

ــ هذا رقم ثان يا زوجي العزيز، ورقم سري..

وانتبه إلى صوت خافت..

كانت أم عماد ــ من شباكها ــ تشير إليه بيدها أن ينتظرها حتى تخرج.

وسمع نداء بقية الرفاق يلحون عليه أن يصعد، فتعلل بأنه مكتئب..

تبادل مع عبدالرحيم بعض الهمس، طالبا منه مفاتيح حجرته، فوضح له أنه سيتأخر في الخارج، وينتظر منه رنة على الهاتف...

ــ إليك رقمي الجديد..

ركب رقمه، سمع رنة وأقفل الخط..

في الحمام..

الثامنة بتوقيت تأمل ملامحه الغائمة في المرآة، قال لنفسه: "الساعة الآن
الحاسوب تنتظره.. غرينتش...الحادية عشرة بتوقيت بلدها. لا شك أنها الآن أمام
ضيعت من عمري على سأبتعد عن النت.. لن أدخل أي موقع إلكتروني.. يكفيني ما
الحاسوب أسبوعا.. لا. ضفاف السيليكون. ماذا جنيت؟ لن يتوقف العالم إن غبت عن

أقرأها.. سأتحمل بعض لن أضعف سأحاول أن أنساها حتى لو بعثت ألف رسالة فلن
المرآة، وشرع في حلاقة شوك الألم"، كتب اسمها بالسبابة فوق البخار.. ثم مسح
بين نارين.. نار (البعاد) وزواج ..خديه.. تخيلها حزينة كئيبة دامعة العين والقلب
...بغيض أشبه بجحيم

..تترقرق الدموع في محجريه، تنساب فوق خذيه الحليقين

.وأحس ببعض الراحة

نفسها، وهو يدنو من ارتدى ثيابه وغادر، وردد الليل صدى وقع خطواته الواثقة من
الرفاق، وقد تناثروا فوق الدكان القريب من الورش.. تناهت إلى مسامعه قهقهات
.قطع الآجر ممزقين سكون الليل

..كل هذا ليس مهما..."، يقول في سره"

رغم بعض الكدر شيء واحد شغل باله.. لم يكن يتوقع أن تنتهي جلستهما الغرامية
من خلال حين سألته كيف قضى يوم عمله في بيت المحامي، أدرك سر تلميحها
الألم الذي تمطى نبرات صوتها الحزينة.. اختلج قلبه فرحا بغيرتها من نادية رغم
:في حبور صبياني في دواخله.. فلم تهدأ إلا حين عرفت أنها أم وأرملة، فهتفت

!!ــ سأجعلك تنسى كل النساء

...كل شيء كان على مايرام لولا

وهما يغادران قبيل الساعة السابعة، كانت تتأبط ذراعه، وترخي رأسها على كتفه في
.الممر شبه المظلم

..نظر إلى عبد الرحيم مشدوها وإلى جانبه ابنها

...فغرق الأربعة في صمت مقبري